رواية

مكتبة ٥٣٧

معتوه .. في دائرة العقلاء

الأسير المهندس

عبدالله غالب البرغوثي

تقديم

الدكتورة ديمه طهبوب

الفرسان للنشر والتوزيع

صندوق الكتب BOXOK

مكتبة | 537

معتوه..
في دائرة العقلاء
t.me/t_pdf

جميع الحقوق محفوظـــــة لدى

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

2017م - 1438هـ

9789957606909 ISBN

رقم الإيداع 4401/09/2016

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٠١٩ ١٢ ٢

المحتويات

المقدمة..... ٤

مقدمة الدكتورة ديمة طارق طهبوب..... ٥

الإهداء ١٠

فقرة رقم ١: غيبوبة ١١

فقرة رقم ٢: ما قالوه..... ١٩

فقرة رقم ٣: زمزم ٣٠

فقرة رقم ٤: البسطاء ٤١

فقرة رقم ٥: قناع الوجه الإنجليزي..... ٥٧

فقرة رقم ٦: لا أقنعة ولا بله بعد اليوم..... ٧٥

فقرة رقم ٧: لم أكن أسدًا..... ٩١

فقرة رقم ٨: الوداع ١٠٨

المقدمة

رواية «معتوه في دائرة العقلاء» تتحدث عن شابّ اسمه عماد، وما عماد سوى أنا وأنت وهي، عماد هو تجربة الإنسان البسيط الذي لاذَ بالصمت تارةً، وبالكلام تارةً أخرى، فوجد أنّ الصمت والكلام لا يمكن لهما وحدهما إزاحة ظلم الاحتلال، ولذلك قرَّر عماد بطل رواية الواقع أن يثور ويقاوم بعد أن جرَّب الصمت الطويل والكلام الكثير.

معتوهٌ في دائرة العقلاء.. خالية من التعقيدات اللُغوية المركبة، وخالية من متاهات الكلمات التي تغصُّ بها قواميس اللغات، بسيطة مباشرة هي هذه الرواية.

معتوه في دائرة العقلاء.. هي الواقع والحقيقة التي عاشها بطل الرواية عماد، وعشتها أنا وأنت وهي، فالواقع ولا شيء سواه، ما سوف تراه وتعيش أحداثه بحلوها العسلي، ومرّها العلقمي.

أكتبُ هذه الرواية بعد أن كنتُ قد عايشت تحدياتها، وعِشتُ معهم صامتًا، متكلمًا، ثائرًا!

عبدالله البرغوثي

فضل المقاومة على التكلم أو الصمت..

على الرغم من سماكة الجدران.. وكثافة القضبان..

سوف ترى هذه الرواية النّور ما دمتم أنتم ترونه..

انضم إلى مكتبة .. .. اضغط اللينك

t.me/t_pdf

مقدّمة

الدكتورة ديمة طارق طهبوب

أخبرتني صديقتي على الهاتف.. عبدالله البرغوثي يريد أن يهاتفك لتراجعي روايته الجديدة وتكتبي مقدمة لها!

- من عبدالله البرغوثي؟

- كم عبدالله البرغوثي تعرفين؟

-أعرف المهندس عبدالله البرغوثي.. أمير الظل.. ولكن هذا غير ممكن! فمن أين يعرفني الأمير؟! ومن أنا في سوق الأقلام وميدان المبادىء حتى يطلب مني أن أضيف ولو حرفاً، أو ألقي نظرة على مخطوطه قبل نشره؟!

صمتت المتحدثة لتثبت جديتها، ولطمتني الحقيقة أنّ الأمر جدٌّ لا هزل فيه!

ما بين مكالمتها ومكالمة الأمير مرّت سنة، وكنت سعيدة أنّ الأمر كان مجرد فكرة لم تتم، ولم أخض هذا الامتحان العسير، إلى أن فاجأني اتصال من الثريا متمثلًا بصوت بشر شكّل مجرد الرَّدِّ عليه امتحانًا صعبًا حصلت فيه على درجة تفوق في البلادة، وكأني مثل بطل الرواية، وقعتُ عن حمار وأصبت في رأسي،

فكيف يُرَدُّ على هكذا مكالمة؟! كيف يتحدث أيُّ شخص مع عبدالله البرغوثي؟! ماذا يقولون له؟ وكل كلمة تتساقط تحت أقدامه خجلًا و تواريًا؟!

صَمَتُّ طويلًا وأنا أستمع له، صوته حيويٌّ شابٌّ لا تحمل نبرته علامة يأس، ولا تثقله المؤبدات غير المعدودة التي يواجهها، يتحدث بإقبال وعفوية ونشاط، وكأنما يجلس في حديقة بيته أمام فنجان قهوة يشرح لناقد سيرته الكتابية وأسلوبه بسلاسه وانسياب، وكأنه لا يعيش وحيدًا إلا من إيمانه و قلمه في عزل انفرادي استهدف إنسانيته ونفسيته بغية تهشيمه إلى شظايا رجل!

ليس في صوت عبدالله البرغوثي شيءٌ من هزيمةٍ ولا انكسارٍ، بل إنّه يبثُّ الأمل في نفوس من كسرتهم تجارب الحياة وهم يظنون أنهم يخوضون معارك عظيمة في مواجهة طواحين هواء من صنع خيالهم!

- أصبح الأمر جِدٌّ إذاً!! والبرغوثي يطلب مني أن أقرأ وأعلق!

- هل أستطيع ردَّ طلب الأمير وأنا بالكاد أستطيع أن أنبس ببنت شفة!

- سَكَتُّ سكوت المضطرِّ وفي داخلي أمواج يحاطم بعضها بعضاً!

وبدأت تلك اللحظة الدرامية الفاصلة التي نعرفها عن عقدة الكتابة واحتباس الأفكار وإمساك الحروف! وأصبحت مثل جدتي أقول في نفسي: لماذا أنا؟ «هو ما في أعور الا أعور الدّير؟!».

لماذا هذا الامتحان؟ هل كل ما كتبته يومًا من صغير الخواطر أو جليل الأفكار يأتي اليوم ليعيش هذه اللحظة المصيرية في التقديم والتعليق على نصٍّ كُتِبَت حروفه بالدَّم لا بالقلم، في حومة الميدان لا على المكاتب، وفي حرقة الشمس لا في ظلّ الراحة! هذا نص دفع صاحبه حياته وحريته لأجله، فأيُّ طارىءٍ مترفٍ منعمٍ يمكن أن يعلِّق عليه؟!

نعم.. قرأتُ وكتبتُ بنفسية من يكتب حاشيةً لِمَتنٍ، والحاشية تتوارى مع عِظَمِ المَتنِ وجلاله، فلا يُبالي أحد بها، وهذه الحقيقة.. فمع عظماء الميدان كلّنا في الصفوف الخلفية، كلّنا وراء الكواليس، كلّنا في الاحتياط، وقد لا تتاح لنا الفرصة أبدًا لإثبات صدقنا سوى ببضع دموع أو خلجات دعاء أو جهد بسيط نقول لهم من خلاله: دعوا الباب مواربًا لعلّنا نلحق بكم، لعلّنا ننفد، ولا تغلقوه، ولا تضربوا بيننا بسور ظاهره من جهتكم الرحمة، وباطنه من جهتنا التَّرك والاستبدال والهامشية في ركب الحياة.

أمسكتُ المخطوط بعد تأجيل، كقنبلة ستنفجر في وجهي، وتُثبِتُ أني لا أعرف الألف من الياء في الكتابة والنقد الأدبي، وأقدمتُ إقدام المتهور الذي يقول:

إذا لم يكن من الموت بدٌّ فمِنَ العجزِ أن تموت جبانًا

وبدأت أقرأُ الرواية الأحدث للأمير بعنوان (معتوه في دائرة العقلاء)!

يجذبك التضارب في العنوان، فبينَ الإبداع والجنون شعرة كما يقولون، فهل يقطعها الأمير أم يحسن شدّها وجذبها ليتوازن عليها بطل القصة حابسًا أنفاسنا حتى النهاية المتألقة؟!

تمثل هذه الرواية انطلاقة مختلفة لقلم البرغوثي، فقد ارتحل فيها من مدرسة أدب السجون وأدب المقاومة الصرف الذي طبع أسلوبه ومعظم أعماله في البداية، فهو في هذه الرواية يكتب عن كل إنسان فلسطيني أراد الحياة في سبيل الوطن، أراد أن يخدمه من باب العلم والتفوق والدفاع عن المظلومين، فأوصد الاحتلال الأبواب كلّها في وجهه، دافعًا إيّاه الى المقاومة الثورية التي تنتصر بدفع القوة بالقوة، والطغيان بالعدل، قدّم في هذه الرواية الفلسطينيّ المغترب الذي قد يترك فلسطين بجسده ولكنها لا تغادر قلبه وروحه، ولا يطول الوقت حتى يعود الجسد ليلتقى بالروح على أرض فلسطين، حيث يكون المقام الأخير المفضل على كلّ جنان وأوطان الدنيا!

يدهشك عندما تقرأ للأمير عنايته بالتفاصيل الانسانية التي تُغني السَّرد، وتقرِّب الشخوص إلى القارىء، فيرى فيها نفسه وتجربته فيتماهى مع الأحداث ويتشوق للمتابعة!

الوصف العاطفي المفصل لمشاعر وأعمال الأمومة والأبوة ينمُّ عن غنى مخيلة كاتبٍ استطاع فهمَ أحاسيس عاشها مع والديه حقيقة،

ويعيشها في الخيال أو على الورق مع أبنائه الذين حُرِموا منه وحُرِمَ منهم، ولكنَّ عتمة السجن وبرودته لم تنفد إلى مِرجَلِ العواطف في قلب البرغوثي الذي ظلّ مشتعلًا برغم السنين!

بداية القصة تدور في عقل البطل عماد ويرويها في حالة غيبوبة، وهذا السّرد النفسي اللاواعي يمكّن القارىء من الاقتراب أكثر منه، ويعطي مصداقية أكبر، وكأنّ البطل يتكلم دون خوف ولا قناع ولا ستار!

ليست رواية مقاومة تقليدية تستدعي مفرداتها المعروفة التي ربما ملّها القارىء مع كثرة التكرار، وإنما تدخل من باب المعالجة الإنسانية لحياة صعبة لشخص اتُّهِمَ في عقله فاغتيل وهو ما زال حيّاً يُرزَق! تعالج الرواية المرض واليُتم والحبّ والفقد والغربة والتضحية في قالب واقعي لا يخلو من إثارة، ويبقي القارىء على حافة التساؤل أن ماذا بعد؟!

يُتقِنُ البرغوثي تضمين التفاصيل التاريخية والسياسية في الحبكة الأدبية، فتغدو مُتَّسِقة مع السياق دون حَشو أو فرض على الشخوص والقراء!

يقترب البرغوثي إلى أحلام الفلسطيني في الحبّ والدراسة والعمل والتفوق، ثمّ يخلص إلى تلك النتيجة الحتمية، أنّ كلّ هذه الأحلام محكوم عليها بالفشل الذريع في وطن محتل، فلتحقيق الأحلام لا بدَّ من إزالة أسباب الكوابيس حتى يستطيع الفلسطيني أن يحلم ويحقق أحلامه في الواقع.

النهاية مباشرة.. ويستلم فيها البرغوثي بنفسه مقاليد الختام، ويخرج من القصة ليخاطب القراء دون الحاجة إلى بطل القصة؛ فقد صاغ شخصية عماد لتحمِلَ صفات الكثيرين الذين انشغلوا بمعارك جانبية أو انتصارات مؤقتة عن المعركة الأهمّ والانتصار الأعظم، والوسيلة الوحيدة لاسترجاع الحقّ الذي انتزع بالقوة.

عمادالدين بطل القصة بتحولاته الدرامية من العَتَه المزعوم إلى العقل والتّفوق، ومن متابعة الأحلام الفردية إلى تبني القضايا الإنسانية والوطنية، هو وصفة البرغوثي للإنسان الذي يريد تقدمته للعالم، إنسان محرّر من قيد «الأنا» مكبّل فقط بحبّ الوطن والحرية والعدالة، وأنعِم وأكرِم بهكذا إنسان محرّر من قيد «الأنا» مكبّل فقط بحبّ الوطن والحرية والعدالة، وأنعِم وأكرِم بها من قيود لا رغبة في الانفكاك منها!

في حب الوطن والتضحية من أجله يُحمد الجنون بكافة أشكاله، ويعرف ذلك من أخذت فلسطين لُبَّهُ، وملكت عليه قلبه فغنّى لها: لولا هواكِ لما كنا مجانينا.

في هذه الرواية يخرج البرغوثي من كل الصناديق والدوائر، ليحلق في سرب الأحرار المتهمين في دنيا العبيد، ورسالته لهم:

«معتوه أنا وأنتم العقلاء في دوائركم، دوائر المكر والتنظير، دوائر التطبيع، دوائر العقلاء، معتوهاً كنتُ وسوف أبقى حاملًا سلاحي لكي أقاوم، وعقلاءُ أنتم تعيشون بسلام، ما هو إلا استسلام وهدر كرامة واستعباد!

ديمة طارق طهبوب

مكتبة
t.me/t_pdf

الإهداء

أهدي هذه الرواية إلى:

أبي الغالي وأمي الحبيبة أطال الله بعمريهما..

إلى زوجتي وأطفالي تالا وأسامة وصفاء..

ولكل من ساعد على أن ترى هذه الرواية النور، وبخاصة أختي الغالية على قلبي «ريم البرغوثي»..

إلى فلسطين بأشجار الزيتون وكروم العنب..

وإلى نور الشمس الذي لم أتمكن من مشاهدته منذ أعوام وأعوام، منذ أن اعتقلت وكبّلت، وفي زنزانة العزل الانفرادي عزلت..

إلى الأحرار في كل مكان وزمان..

عبدالله البرغوثي

أبو تالا.. أبو أسامة، أبو صفاء

الشهيد الحيّ

عبدالله غالب البرغوثي

فقرة (١)

غيبوبة..

كان رأسي يؤلمني وكنت مُغمض العينين، وكان ماء الكمادات التي وُضعت على جبيني يقطر باردًا، لم أكن أرى ما يدور حولي، لكنني كنت أسمع جيدًا كل ما يُقال.

قال الطبيب موجهاً كلامه لأبي وأمي: ادعوا الله لابنكم، لأنه إن لم يتضرر دماغه من جراء سقوطه أرضًا، فإن الخطر لا يزال قائمًا بسبب ما أصابه من حُمّى.

اسهروا الليل على راحته، وأنتِ يا أم عماد واصلي وضعَ الكمادات الباردة على جبينه، واحرصي على أن لا ترتفع حرارته أبدًا.

أما أنتَ يا ابن العم، يا أبا عماد، لقد عرفتك مؤمنًا مصليًا، لذلك سلِّم أمرك لربك ولا تقنط من رحمة الله. أستودعكم الله، وغدًا صباحًا سوف آتي لمعاينة عماد.

ما إن رحل الطبيب حتى سمعتُ أبي يقول بصوت عالٍ معاتبًا أمي، إن أخاها سالمًا هو المسؤول عما جرى لي، وأنه لا يريد منها أن تسمح لسالم بدخول بيتنا، حتى لا يضطر والدي لضربه؟ ما الذي فعله سالم لكي يُضرب؟

سالم يكبرني بنحو ستة أعوام، وهو خالي الأصغر، طالب مجتهد بعامه الأخير قبل التخرج من المدرسة الثانوية، وهو الخال الطيّب الذي على الرغم من انشغاله بدراسته للامتحانات الثانوية، إلا أنه لا يتوقف عن تقديم المساعدة لأي أحد كان.

ما دام سالم الكبير سوف يُضرب، فمن المؤكد أنني أيضًا سوف أنال العقاب والضرب، فإذاً.. لأَبْقَ هادئًا صامتًا حتى تمرّ العاصفة بهدوء، وبعد ذلك سوف أغلق عينيّ محاولًا النجاة من العقاب، المشكلة أنني لا أعلم ما هو الذنب أصلًا الذي من المفترض أن أُعاقَبَ عليه.

تَرَكَ والدي غرفتي مخلفًا وراءه بقايا صراخ، وبقايا صوت لباب الغرفة الذي أغلق بقوة، بقيت أمي المسكينة طوال الليل مستيقظة، فلقد كنت أشعر بذلك جرَاء تلك الكمادات الباردة، التي ما إن تدفأ واحدة منها على جبيني، حتى تقوم أمي بالإسراع لاستبدال واحدة باردة بها، باردة مثل الثلج، ما كان يجعلني أنتفض من بردها لا من مرضي.

تقرأ القرآن تارةً، بل تقرأ المعوذتين على رأسي، وهي تضع يدها مرارًا، تتمتم، وتتمتم، تدعو الله متذرعةً ومقسمةً بأن تطيع الله أبدًا، وألاّ تغتاب أحدًا، ولا تخوض بحديث النساء والثرثرة، نذرت لله أن تذبح خروفًا وبقرةً إن أنا أفقتُ من غيبوبتي واستيقظت، وأبي يريد عقاب سالم، وحكمًا عقابي أنا إن استيقظتُ.

دخل والدي بعد أن صلّى الفجر، فلقد سمعت صوت الأذان قبل برهةٍ من الزمن. دخل بهدوء وحذر، فأنا لم أسمع صوت دخوله الحجرة، بل سمعت صوت إجهاشه بالبكاء والتضرع للمولى عز وجل والاستغفار والرجاء والبكاء.

كان والدي يعمل محاضرًا بجامعة القدس المفتوحة، وكان أستاذًا شديدًا ذو هَيبةٍ واقتدار، متواضعًا بطبعه، متواريًا بقناع الشدّة بحكم واجبات عمله، وهو التدريس.

والدي من ذلك النوع الذي يفضّل خطأ الصمت على خطأ الكلام، فإن كان بصمته ما قد يؤخذ عليه واعتباره غير مشارك باتخاذ القرارات، فإنه يفضّل هذا الصمت على أن يشارك باتخاذ قرارٍ يُحسب عليه أنه مشاركٌ به بمجرد أن قال رأيًا أو جزءًا من الرأي.

اعتاد والدي عادة الصمت، بعد أن لاحظ أنّ عددًا من الساسة يقتطفون بعضًا مما يكتبه في مقالاته الصحفية، ويحولونه بعد تحويرٍ وَلَيٍّ للعنق إلى كلام لا يُفهم له معنى قياسي، قد يحرفون أجزاء الجُمل عن مواضعها، قالبين بهذه الأجزاء الحق الذي كان يقصده إلى باطل، وهو ما أرادوه ويسعون إليه، فما عاد والدي يكتب، وما عاد يشارك، فالصمت ملاذه بعد أن كسر القلم، وعقد البنان.

أمي التي كانت قد سلَمت عينيها قليلًا من شدّة النعاس، سرعان ما استيقظت على صوت البكاء: بكاءً مكبوتًا تحوّل صوت بكاء والدي، فلم أعد أميّز بين صوت البكاء وصوت كلمات الدعاء.

بَكَت الحنونُ أمي بصوت مخنوق، وبقي كلاهما على هذه الحال حتى الصباح.

حضر الطبيب صباحاً محاولًا استيضاح حالتي الصحية، وقام بعدة فحوصات لم تمكنه من معرفة ما آلت إليه حالتي، فقرّر نقلي إلى مشفى المدينة، وتمَّ ذلك على أسرع وجه ممكن، كنت أسمع وأحسّ بكل ما كان يدور حولي، لكن عينيّ لم تكونا قادرتين على أن تأمرا جفوني لتبتعدا مفسحةً للنور كي يدخل إلى عيني، فأتمكن من الرؤية، ويلٌ لكِ أيتها الجفون الكسولة.

وصلتُ إلى المشفى في المدينة، حيث بدأ الأطباء بفحصي طبيبًا تلو الآخر.

هؤلاء الأطباء تحدثوا إلى أمجد طبيب العائلة، ابن عم والدي، قائلين كلمات لم أفهمها، كلمات متداخلة متشابكة بين العربية تارةً، والإنجليزية تارةً، وأنباء أخرى.

مثل تلك الأشياء التي يكتبها الأطباء على أوراق وصفاتهم الطبية التي تحتاج لقاموس ومحلل خطوط لكي يستطيع ترجمتها، ولا يستطيع، فتُقدَّمُ للصيدلي الذي لا يكاد يلمحها حتى يسارع بإحضار الدواء من على أحد رفوف الأدوية التي تملأ الصيدلية.

لم أفهم ما قالوه، ولم أفهم يومًا ما كتبوه.

ما إن ترك الأطباء الغرفة، حتى دخل والدي ووالدتي، وقبل أن يسألوا الطبيب أمجد، سارع هو بالقول: ادعوا الله لعماد، لعلّه يستفيق من غيبوبته، وبعد ذلك نرى، فلم يستطع الأطباء المتخصّصون الوصول إلى جوابٍ قاطع شافٍ في مرض عماد، لكن لا تقلقوا، فسوف أحاول التواصل مع أطباء آخرين خارج فلسطين لعلّي أجدُ عندهم بعض أجوبة على ما يملأ رأسي من أسئلة.

ترك الطبيب أمجد الغرفة، فلَحقَهُ والدي بعد أن قال لأمي إنه متوجه إلى أحد المساجد القريبة من المشفى، سائلًا أمي إذا ما كان هناك ما يحضره لها بعد عودته من الصلاة، أشارت والدتي بأنها لا تريد شيئًا، لم أرَ تلك الإشارة لأنّ جفنيَّ عينيَّ الكسولين لم يزالا على حالهما، ولكنني أدرك ذلك من صوت والدي الذي قال: حسنًا، ما دمت لا تريدين شيئًا، إن تذكرتِ شيئاً بعد خروجي اتصلي بي على هاتفي النقال.

ما هي إلا عدة ساعات، عاد بعدها والدي وعاد قبله عددٌ من أخوالي وأعمامي حتى ملؤوا الغرفة، وما إن وصل والدي مصطحبًا معه الطبيب أمجد حتى طلب الطبيب من كل أولئك الزوار أن يغادروا غرفتي، لأن حالتي لا تسمح بهذا الكم من الإزعاج والضوضاء.

تلك الضوضاء التي كانت ممتعة جدًا لي، فلقد جعلتني أستمع إلى ذلك الكلام الذي يبدأ بكلمات مثل قال، وقيل، وقالت، وقالوا، وليذكر قائل تلك الأقاويل ما قال هو، فيكتفي بنقل النميمة، وما أجمل النميمة.

ترك النمامون الغرفة فبقيتُ على سريري ممددًا، وبدأ الطبيب أمجد حديثه موجهًا كلامه لوالدي ووالدتي: إن استيقظ عماد اليوم من غيبوبته، فأظنّ أنه لن يستيقظ من خَبَل وعَتَه قد حلّ به جراء سقطته. صريحًا مباشرًا كان كلام أمجد.

وسريعًا وحرَاقًا كان بكاء أمي، ما لبث والدي أن شاركها به. ترك أمجد الغرفة مودّعًا. وعاود والدي بحثه عن مكان يصلي به داعيًا بشفائي، تاركاً أمي تارةً تبكي، وتارةً تتمتم بالدعاء.

لقد سقط، سقط على رأسه، هذا ما كرره الطبيب أمجد مرتين، إن كانت جفون عيوني ترفض أن تغادر كلّها، فلأغادر أنا مبحرًا في ذاكرتي لعلّي أتذكر عن أي سقوط يتحدثون.

صحيح.. صحيح.. لقد سقطتُ من على ظهر حمار، نعم حمار، فلقد كنت قبل يومين أركب على ظهر حمار متوجهًا مع خالي سالم إلى أرض جدي.

في ذلك اليوم، وقبل أن يتوجه جدّي صباحًا إلى أرضه مرَّ ببَيتِنا، وطلب من والدتي أن تكلفني بأن أُخبر خالي سالمًا عندما يعود من المدرسة، أن يأتي بالغداء والماء لجدّي، لأن جدّي لن يعود ظهرًا كما جرت عادته، بل سيبقى يراعي شؤون الأرض حتى المساء.

فأبلغت خالي سالمًا بما طلبه جدّي بعد أن أبلغتني أمي، وطلبتُ من خالي أن يصطحبني معه فرفض، فألححتُ عليه، ولطيبة قلبه وافق، فصعدتُ على ظهر الحمار، وسار هو ممسكًا بالحبل أمام الحمار، لم أطق الجلوس على ظهر الحمار، فأردت أن أقلّد نجوم السيرك، فوقفت على ظهر الحمار، وما إن فردت ذراعي حتى أوازن وقفتي، حتى هويت أرضًا ضاربًا رأسي بحجر ملقى على جانب الطريق، لم يكن الحجر أو الحمار أو حتى سالم لهم ذنبٌ بما حلّ بي، فأنا المذنب الوحيد بذلك.

كانت والدتي تقول لي إنه لولا شقاوتي الزائدة جدًا، لكنت من المتفوقين بالدراسة، ليس على مستوى مدرستي فحسب كما هي الحال الآن، فأنا الأول على صعيد الصف والمدرسة أيضًا، ولكن والدتي أرادت مني أن أكون متفوقًا على صعيد كلّ مدارس الدولة، إذًا أنا ذكي جدًا، هذا ما تقوله عني والدتي، ولقد تذكرته، ولكنني شقي جدًا أيضًا.

استطعت أن أرغم جفوني على أن تزيح الستار، قطع النور، وأنا أعيد إغلاق ستار جفوني من جديد، متفاديًا شدة النور، معاودًا تلك الحركة حتى استطاعت عيناي التعود على الضوء، شاهدتُ والدتي وقد أزعجها السّهر على رعايتي، فنامت على سريرٍ وُضعَ بجوار سريري في المشفى.

بقيت على حالي فاتحًا عينيّ، أتأمل السقف تارةً، وأتأمل أمي النائمة كأنها طفل أنهكته شقاوة لعبه طوال اليوم فخرَّ نائمًا من شدّة التّعب، أمي التي تسمو بعواطفها الأمومية على كلّ ما حولها من كائنات، فهي ملاك يمشي على الأرض، بل هي مجموعة من الملائكة، فتارةً هي ملاك الرحمة، وملاك الحَب،

وملاك العطف والحنان، وتارةً هي الملاك الحارس متجسدًا بجسد لبؤة تحمي صغارها من أيّ خطرٍ داهم.

مرّت دقائق كثيرة وأنا على هذه الحال، صامتٌ هادئٌ محدقٌ، ما لبث كلّ هذا أن تبدّد عندما استيقظت أمي من نومها، فأيقظت المشفى بأسره ابتهاجًا بي، لا بل ابتهاجًا بجفوني الغبية الكسولة، التي كانت تعيق نورًا داخلًا أو خارجًا من عينيّ، فأنا كنت وما زلت ممددًا على سرير الشفاء، أما تلك الجفون فقد كانت ممددةً على عيوني، بل على جسدي كله.

حَضَرت الممرضة، وحَضَر الطبيب المناوب بالمشفى، وما هي إلا ساعات حتى حَضَر والدي والطبيب أمجد.

بدأ الأطباء بإجراء فحوصهم عليّ، بدءًا بعيوني، فأخذوا يسلطون عليها أنوار مصابيحهم القوية، يسلطون تلك الأنوار وهم ممسكون بجفوني لكي يمنعوها من أن تغلق ستائرها على عينيّ، تبًا لك أيتها الجفون، غبية كسولة، عندما أردتُ منك أن تفتحي الستارة تدلّلت عليّ، وعندما طلبتُ أن تغلقي ستارتك لم تفعلي، ويلٌ لكِ يا كسولة.

ما إن أنهوا عبثهم بعينيّ بتلك المصابيح التي يحملونها معهم بجوار أقلامهم الموضوعة بداخل جيوبهم، حتى بدؤوا يتحدثون إليّ مطالبين بأن أحرك يدي تارةً، وقدمي تارةً أخرى.

فكنتُ أحرّك قدمي عندما يشيرون ويقولون لي حرّك يدك، وأُحرّك يديَّ عندما يقولون لي حرّك قدمك، كنت أفعل كلّ ذلك نكاية بجفوني الكسالى، وخوفًا وخشيةً من تلك المطرقة الصغيرة التي كان أحد الأطباء يحملها بين يديه، وما يلبث بين الحين والآخر يوجه لركبتي ضربةً، أقرب ما تكون إلى لسعة من تيار كهربائي، ما يجعل الركبة الساكنة ترتفع من تلقاء نفسها دون أن أطلب منها ذلك، ودون أن تريد هي فعل ذلك.

أما ركبتي الأخرى، فلم تطرب للأنفاس، كانت محاطةً بالجبس من كل مكان، ولم تكن جزءًا من تلك اللعبة لدى ذلك الطبيب، فلقد كانت جزءًا من لعبتي أنا عندما حاولت الوقوف على الحمار، فوقعت كاسرًا إياها؛ وكاسرًا مدميًا رأسي.

آهٍ من تلك الأعوام التي حيّرت أعظم علماء النفس، أعوام المراهقة المبكرة ما بين الاثني عشر عامًا والثامنة عشر.

فعلى الرغم من أن عمري لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة عندما حدث لي ما حدث، فقد كنت أعيش عبر أحلام أُنتجها بخيالي تارةً، أرى نفسي فارسًا يركبُ جوادًا حاملًا خلفَهُ أجمل الأميراتِ، وتارةً أرى نفسي أستاذًا جامعيًا حاملًا هموم الوطن على كتفي.

على الرغم من كلّ الفحوصات التي أُجريت عليَّ بذلك اليوم، فإن أحدًا من لابسي المعاطف البيضاء لم يسألني أي سؤال، فاكتفوا بفحوصاتهم التي أدَّت إلى استنتاجٍ مفاده أنّ دماغي قد تضرر، وإنني أصبحت مخبولًا أو معتوهًا.

آهٍ منكم يا لابسي الأبيض، أردتم مني أن ألبس الأصفر -وهو لون ملابس نزلاء مشافي المجانين في بعض الدول والأماكن-، حكمتم وأصدرتم الحكم، فأنتم اليوم قضاة وجلادون في آنٍ معًا؟ بل أنتم مجموعة من الأغبياء لا أكثر ولا أقل؟

هل تعلم أيها الطبيب أنّ مصباحك الذي استعملته لفحص عينيَ يعمل بالبطاريات الجافة، وأنه بحاجة إلى بطاريتين كلّ واحدة منهما تولد فولتًا واحدًا، وأن مصباحك يجب أن يكون مصنوعًا من مادة الستانلس ستيل، مثله مثل مطرقة ذلك الطبيب الذي كان يحمل المطرقة التي أدت إلى حركات لا إرادية بعد طرقها ركبتي، أما سبب استعمال مادة الستانلس ستيل يعود لكونها لا تصدأ، ولأنه يسهل تعقيمها عبر استعمال المطهرات أو الأشعة فوق البنفسجية، هل تعلم ذلك يا من حكمت عليَّ بأنني مخبول أو معتوه؟!!

طبعًا لا تعلم.. فكلامك غير مفهوم، وخط يدك هو الآخر غير مفهوم ولا مقروء.

آهٍ منك يا لساني، انطق وتكلم، قل لهم، تحدث وأنت الذي لم تكن تكفُّ أبدًا عن الكلام، كان لساني مثقلًا بالمهدئات التي كانوا قد حقنوني بها عندما ضمّدوا جراحي، وجبّسوا كسر قدمي، وكسر جمجمتي، فلقد وضعوا اللفافة تلو اللفافة على جمجمتي بعد أن قطّبوا جرح رأسي الذي كان كبيرًا، فأخافهم ذلك جدًا، ودفعهم لقول ما قالوه.

فقرة (٢)

ما قالوه..

كان ما قالوه قد وصل إلى القرية، فانتشر كالنار بالهشيم، فأصبح الناس هناك يقولون: يا حرام، أبَعدَ أن كان ذكيًا متفوقًا تُحسَدُ أمه عليه، أصبح أبلهًا يُشفَق عليه من مرضه وبلهه؟

لقد تحولتُ بين ليلة وضحاها من عماد الذكي المتفوق المشاكس، إلى عماد الأبله المُقعد بعد كسر قدمه، غير القادرِ على المشي، ولا الدفاع عن نفسه.

بقيتُ عدة أسابيع بالمشفى، استمع لما يقال حولي من نميمة، من هذا الزائر إلى ذاك، وما لبثت النميمة أن تلاشت بعد أن تلاشى سببها، وهم الزوار، فقد تمّ نقلي إلى مشفى خاص في العاصمة الأردنية عمّان، ولأن الفساد كان قد نخر بذلك المشفى الخاص، حاله كحال الفساد الذي نخر العديد من مفاصل الدولة وبعض مؤسساتها، فلقد بقيتُ بالمشفى لشهر أو يزيد تحت حججٍ واهية لا أساس لها، ولا فائدة منها سوى استنزاف مال والدي الذي لم يكن كثيرًا، فراتب والدي المحاضر الجامعي متواضع، وفاتورة المشفى كانت مثل تلك الفواتير الشبيهة لوصفات الأطباء، فلم يجادل والدي بل دفع ما كُتِب، ثم عاد بي إلى فلسطين، إلى قريتي.

في تلك الأثناء، كان أهل القرية سواء كانوا أقارب أو مجرد ساكنين في المكان، قد أجمعوا جميعًا على أنني أصبحت معتوهًا، وأنه لا فائدة من علاجي، فلقد قالوا إن العلاج بداخل البلاد لم ينفع، والعلاج هناك بعيدًا بعمان لم يُجدِ أيضًا، وأن والدي اضطر للعودة بعد أن فقد الأمل، وصرف كل ما بقي معه من مال على علاجي.

عندما عدتُ إلى القرية كان الجبس الذي على قدمي قد أزيل، ولكنني عدتُ جالساً على كرسي نقال أوصى به طبيبٌ فاسدٌ بذاك المشفى الفاسد. وقال لوالدي إنه من الأفضل ألاّ أتنقل ماشيًا على قدمي لكي لا يحدث ضررٌ كبيرٌ في دماغي.

ألا يكفي دماغي أنهم قالوا عنه إنه دماغ معتوه، وطبعًا لم ينسَ ذلك الطبيب أن يضع لفافة كبيرة على رأسي، دلالةً على أنه قام بعمله جيدًا من ناحية، ودلالة على أن العتمة قد باتت تحت تلك اللفافة والعصبة.

لم أكن أستطيع الكلام، لا أدري أكان ذلك مرضًا أم عدم رغبة مني بالكلام أصلًا؟

بعد أيام على هذه الحال، حاولتُ التحدّث بصوت عالٍ وأنا أغتسل بالحمام، فحركت شفاهي أمام المرآة، وبدأتُ ألفظ الكلمات الواحدة تلو الأخرى، فعلمت عندها أنني أستطيع التحدث.

ألم يقل الأطباء أنني لم أعد أستطيع الكلام، وأنه لا شفاء متوقع لحالتي؟! آه منكم أيها الحمير، والله إن ذلك الحمار الذي سقطت من أعلاه أعقل منكم، وأكثر ذكاء، بل أكثر منكم حكمةً، يا حكماء عصركم، يا عقلاء، أنتم العقلاء وأنا المعتوه الذي كبّلتموه بداخل دائرتكم، فأصبحت معتوهًا في دائرة العقلاء، وأي عقلاء، فلم تعد المشكلة هنا مع الأطباء، بل أصبحت مع أهل القرية كلهم، أقارب كانوا أو غرباء.

فما إن تراني أي امرأة من اللواتي يزرن والدتي، حتى تبادرني بالقول :الله يشفيك يا ابني من العته الذي أصابك، الله يشفيك. تقول ذلك حالها حال كل من أراهم أو يروونني. فأصبحت ألوذ بصمتي عاضًا على المرّ، حالمًا بأفكاري لأفرَّ من ألم الواقع.

فكل ما كان قد حدث لي هو أن جرح رأسي كان كبيرًا نوعًا ما، وأن هذا الجرح تجاوز الجلد ليصل إلى الجمجمة، فكسرت تلك الجمجمة كسرًا لا يرى بالعين المجردة، وهو أقرب ما يكون بشعرٍ بسيط حدث بالجمجمة وليس كسرًا، فلقد شُعرت الجمجمة ليس إلا، ولم أُصَب بالبَلَه ولا بالخرس، ولا بأي شيء آخر أبدًا، ولكنهم وصموني بهذا الوصف، فأصبح الوصم حقيقةً مؤكدةً لديهم.

عندما حاولت العودة إلى المدرسة في بداية العام الدراسي، لم يسمح لي على الرغم من أنني كنت خلال الأشهر الماضية قد أزلت العصبة عن رأسي بعد أن شفي جرحي نهائيًا، وكنت قد كسرت جدار صمتي وبدأت أتحدّث ثانية، مما أعاد البسمة إلى شفاه والدتي وأعاد الحياة لوالدي، فقد كنت ولده الوحيد، وكان يعاني مشكلة في الإنجاب منعته من أن ينجب من والدتي إخوانًا لي.

هناك من المعلمين من ادّعى أنّ وجودي سوف يشوّش على الطلبة، وهناك من قال إنه لا يريد تحمل مسؤولية طفلٍ معتوهٍ بالمدرسة، تلك المدرسة التي كنت أنا الطالب المتفوق عليها، على الرغم من أولئك المعلمين، فلقد كرَّست والدتي جُلَّ اهتمامها في تدريسي وتعليمي طوال أعوام، مما جعلني وعلى مدار أعوام دراستي متفوقًا بشكل ملحوظ، كان في بعض الأحيان يغضب معلمٌ هنا أو معلمٌ هناك، خاصة عندما أكون قد حَضَّرتُ درسه مع والدتي قبل يوم من موعده. لم يقبلوا بي، وأبقوني خارج المدرسة، بل تركوا المعتوه خارج الدائرة، ملقين بي بدائرة أخرى، دائرة جعلتني أرى بوضوح كم أن أولئك العقلاء، بلهاء.

مصيبتي لم تكن هنا فحسب، فعندما أراد والدي الانتقال إلى المدينة مبتعدًا عن القرية، وبدأ الاستعداد والإعداد لذلك فعلًا، لم يسعفه الوقت، فلقد سارعت إلى جسده عدة رصاصات أطلقت عليه من قبل عصابة للمستوطنين الصهاينة قطعت عليه الطريق وهو عائد من جامعته القدس المفتوحة ليلًا، فأردوه شهيدًا، وكتبوا على سيارته باللغة العبرية عبارة «دفع الثمن» وهي العبارة التي يكتبها أولئك المستوطنون الصهاينة عندما يهاجمون قرية ما، ويحرقون مسجدها مثلما فعلوا عشرات المرات.

والدي استشهد، وما عاد بالإمكان أن تنتقل والدتي إلى المدينة لكي أدرس هناك.

كم تألمت هي على عدم تحقيق هذا الحلم، بل كم تعذبت عندما كانت تسمع النمّامات والنمّامين يقولون: يا حرام، مات أبو عماد ولم يترك خلفه سوى ابنٍ معتوهٍ.

ارتدت والدتي الأسود ثوبًا لها، وكرَّست أيام عمرها نحو هدف واحد، هو تعليمي، كانت تذهب كل عام الى المدينة لتشتري من هناك كتبًا دراسية تتناسب مع عمري ومع الفصل الدراسي، وكانت تدرِّسُني، وتحرص على أن تثقل عليَّ بالدرس تلو الدرس، لأنها أرادت أن أتعلم، أتعلم، لا أن أقدم فحصًا أو امتحانًا بالمدرسة التي ما كان بالإمكان دخولها، على كل الأحوال.

قريتنا أشبه ما تكون بمكان تائه بين الريف والبداوة، فهي منطقة بدويّة تحولَت لقرية منذ أعوام فقط، ولولا أن جدي لأبي كان قد اغترب منذ أعوام مصطحبًا معه جدتي، لما كان والدي قد تمكّن من إنهاء تعليمه الثانوي والجامعي، ولا أصبح محاضرًا معروفًا بتلك الفترة، فالقرية فقيرة من جهة، وغنية من جهة أخرى باللصوص المقنعين الذين ينهشون ما يُقَدَّمُ لها من مساعدات، فنجد هذا الذي كان يحيا ويعيش بين صفيح قبل أعوام، أصبح اليوم يسكن فيلا متعددة الطوابق، وبعد أن كان لا يملك ثمن حمار يركبه، صار يجمع حول منزله أغلى السيارات. وذاك الذي لم ينه تعليمه، بل كان غبيا، أصبح اليوم مديرًا أولًا لدائرة حكومية ما.

هكذا كانت أحوال قريتنا البدوية، وهكذا كنا نحيا.

على مدى عامين تمكّنت والدتي من متابعة دروسي على أحسن حال، وتمكّنت أنا من الانكفاء بمنزلنا على أطراف القرية طوال تلك الفترة. فلقد ترك لنا جدي منزلا جيدًا بناه بالمال الذي تمكّن من جمعه عندما كان مغتربًا، وورثه عنه والدي.

أما جدي الآخر، فقد كان فقيرًا نوعًا ما، وكذلك أخوالي، ولولا الطبيب أمجد الذي تمكّن من الحصول على بعثة، لما استطاع خالي الأصغر الذهاب إلى كوبا لتعلّم ودراسة الطبّ هناك.

عندما أصبح عمري أربعة عشر عامًا، كان خالي سالم قد أتمّ عامه الثاني بدراسة الطب، وكان هناك أمرٌ آخر يجري من حولي، كنت أرى أعلاما ورايات ترفع وتعلق فوق المنازل كلها، إلاّ منزلنا، فلم يكن لي أي انتماء فصائلي ولا حتى اهتمام بالسياسة أبدا.

أما والدي فلقد وجدت بقبو منزلنا بعضًا مما يدل على انتمائه السياسي. وجدت أعلامًا خضراء لم يكن قد كتب عليها أي شيء، ولكنني وجدت أيضا صباغًا أبيضاً وريشة، وما إن شاهدت على التلفاز رايات خضراء كتب عليها لفظ الجلالة والتكبير باللون الأبيض، حتى علمت أن والدي محاضر الجامعة المتدين، كان واحدًا من نشطاء تلك الحركة والجماعة.

فقررت أن أكتب على تلك القطع الخضراء نفس الكلمات التي كنت قد رأيتها، وفعلت، بل وعلقت الأعلام على سطح منزلنا لساعات عديدة قبل أن يصل عددٌ من المقنَّعين الذين اقتحموا منزلنا، فأطاحوا بالأعلام أرضًا وأحرقوها، وأطاحوا بي أرضًا وضربوني ضربًا مبرحًا مرددين معتوه وابن محاضر معتوه.

حاولتُ أن أصدّ ضربهم فلم أستطع، فقد كنت صغيرًا وكانوا كبارًا، منهم من كان يحمل سكينًا أو عصًا، ومنهم من كان يحمل رايات ذات لونين، لون أراد أطباء المشفى إلباسي إياه، لون ملابس المجانين والمعاتيه، كما يقال، تلك الرايات، التي كانت قد ملأت القرية، ملأتها بمناسبة الانتخابات التي تخصُّ المجلس التشريعي الفلسطيني، أو ما سبقها من انتخابات بلدية، ليس هذا هو المهم، المهم أن القرية التي كانت قد أُلبست وأغرقت برايات السرايا الصفراء، سرايا مشفى المجانين، قد انتخبت أصحاب الرايات الخضراء، رايات التكبير والمقاومة.

عمَّت أفراح صامتة القرية خوفًا من حَمَلَة العصي والسكاكين، بعد ذلك لاحظت أن والدتي بدأت تقتصد جدا بإحضار العديد من أنواع الطعام، فأصبحنا نقتات على ما يزرع حول منزلنا من خضار، وما كنا قد جمعناه من زيت وزيتون من أراضي جدي، ومن بعض ما أصبحت أمي تحضره من أخوالي، الذين هم أيضًا بدؤوا بالمعاناة، تلك المعاناة التي تبعت الانتخابات، فلم يرض مدّعو الديمقراطية بنتيجة الانتخابات التي جرت، بل بدؤوا بالتضييق على الحكومة التي تشكلت بعد تلك الانتخابات، فقطعوا عنها المال والمعونات، فتوقفت الرواتب، ولأنني وأمي كنا نعتال من راتب أبي، راتب الشهيد، فلم نستطع تدبر أمرنا عندما قُطع ذلك الراتب.

قال أحد أخوالي ناصحًا والدتي بأن تجعلني أعمل، فرفضت أمي ذلك، ووافقتُ أنا على الفور.

كان عملي عتالًا بأحد المخابز بالقرية، كنت أُنزِلُ الطحين المعبأ بالأكياس وأضعه في أحد المخازن القريبة من المخبز ليُخبز هناك، وكنت في صباح كل يوم وقبل طلوع الفجر، أنقل إلى المخبز من ذلك المخزن ما يحتاجه من طحين. كان ذلك المخبز يعود لشخص اسمه طلال، وهو نفس الشخص الذي كان يعمل مديرًا عامًا في إحدى الدوائر الحكومية، على الرغم من أنه لا يحمل شهادة علمية تؤهله لمثل ذاك المنصب.

في بداية عملي، كان العاملون بالمخبز يضايقونني بكلمة معتوه، التي أصبحت اسمًا بديلًا لي بدل اسمي الذي أطلقه عليَّ والدي عند ولادتي، وإكرامًا لجدي سمّاني عمادالدين، وكانوا ينادونني «عماد». أما اليوم، فما عاد لعماد مكانة، وحلَّ محله المعتوه اسمًا، كنت لا أردُّ على مضايقاتهم، بل أفضل الصمت والعمل بجدٍّ.

بعد أشهر من العمل عتّالًا لأكياس الطحين، بدأتُ ألاحظ أن عضلاتي بدأت بالنمو، بل إنها أصبحت كبيرة نوعًا ما، فكيس الطحين يزن خمسين كيلوجرامًا، فقررت أن أبدأ بالتَّدرب على رفع أكياس الطحين داخل المستودع عندما لا يكون هناك عملٌ ما.

كانت شاحنات الطحين تصل عادة في حدود الساعة العاشرة صباحاً، وهذا كان عاديًا جدًا، أما غير العادي فهو توقف تلك الشاحنات عن القدوم أصلاً، وبدء قدوم شاحنات أخرى بعد منتصف الليل، فكان طلال يستدعيني لأحضر لإنزال ذلك الطحين. طحين كُتِبَ على أكياسه «مساعدات خيرية مقدمة من الشعب الإسلامي للشعب الفلسطيني»، فكنتُ أقوم بإنزاله، وكان طلال وإخوته يساعدونني على ذلك، على الرغم من أنهم ما كانوا يفعلون ذلك سابقًا.

بعد عدة مرات.. أصبحتُ أسمع همسًا بأذني من قبل طلال يطلب مني أن أضع قطعة من القماش فوق أكياس الطحين التي أنقلها من المستودع إلى المخبز،

فكنت أغطي الأكياس المحملة على العربة بقطعة من القماش، ثم تحوَّل الهمس إلى كلام واضح، فأنا كنت بنظرهم مجرد معتوه، وهم العقلاء، العقلاء اللصوص.

كان طلال يحادث إخوته الذين يديرون المخبز متباهيًا أنه استطاع من خلال عمله مديرًا عامًا، نهب تلك الكمية الكبيرة من الطحين، ولا يهمُّ من وجهة نظر طلال أنه استمر بذلك النهب لفترة طويلة.

ما إن أدركت حقيقة الطحين المنهوب من قوت الشعب المنكوب، حتى قررت أن أترك العمل.

حاول طلال إعادتي للعمل لديه بشتى الوسائل، فرفع راتبي، إلا أنني رفضتُ متعللًا بألم قد حلَّ بظهري، ظهري الذي كان قد قوي، وقويت معه عضلاتي، وبدت مفصَّلةً مرسومةً على جسدي كأنها لوحة فنان.

تركتُ العمل عند اللص طلال، لأنني أعتبرت نفسي شريكًا له بجريمة سرقة الطحين، على الرغم من أنني مجرد حمَّال، لا حول لي ولا قوة، ولذلك فضَّلت أن أنحي نفسي بعيدًا عن ذلك الفاسد وعن فساده، مكثتُ في البيت عدة أيام حتى تمكن أحد أخوالي من إيجاد عمل جديد لي.

تلك الأيام التي أمضيتها في البيت لم تكن أيام لهو أو لعب، بل كانت أيام دراسة وجِدّ، فلقد قدمتُ بتلك الأيام امتحانات نهاية العام الدراسي التاسع، أصبح عمري خمسة عشر عامًا، وكانت والدتي قد حصلت على نسخة من تلك الامتحانات من إحدى صديقاتها التي تعمل معلمة بمدرسة البنات.

لم أسأل أمي عن النتيجة، فقد وجدت أنها أحضرت لي كتب الصف العاشر، فعلمتُ أنّي قد نجحت.

لم نكن أنا وأمي نتحدث كثيرًا، وكان حديثنا مقتصرًا على الدراسة بعد عودتي من العمل، أو عن أحوالي العامة.

بدأتُ عملي الجديد، وبدأت عامًا دراسيًا جديدًا أيضًا، أما عملي فقد كان هذه المرة عاملًا بجمع النفايات صباحًا، وعاملًا للتنظيف ببلدية القرية،

بعد أن نُنهي أنا وسائق سيارة نقل النفايات عملنا، كان هو يتحول من سائق عربة جمع نفايات إلى سائقٍ خاص لدى رئيس البلدية، وكنت أنا أتحول من جامع أكياس قمامة إلى حاملٍ للمكنسة، أنظف بها أنحاء مبنى البلدية. هناك عملت ثلاثة أعوام كاملة.

وفي تلك الفترة كانت البلدية قد عُين أعضاؤها تعيينًا بعد أن سجن الاحتلال أعضاء البلدية المنتخبين، أصحاب الشرعية. عُيِّنَ بدل هؤلاء أشخاص آخرون على شاكلة طلال وإخوته، كان كمال رئيسًا للبلدية، وحسن نائبًا له، أما نجيب فقد كان مساحًا للأراضي تارةً، ومدققًا للحسابات تارةً أخرى. والأهم بالنسبة له أنه كان وسيطًا بين أهالي القرية وبين رئيس البلدية ونائبه.

شيئًا فشيئًا بدأتُ أنا المعتوه الصامت بفهم ما يجري، كان سائق سيارة نقل النفايات خالد ثرثارًا، ولأني صامتٌ طوال وقت عملنا معًا، فقد كان لا يكفُّ عن التَّحدث عما كان يجري بالبلدية من فسادٍ وإفساد، ومن نهبٍ وتقاسم للغنائم.

كان خالد يمقت أولئك اللصوص، فهو كان يعمل سابقًا مع الأعضاء المنتخبين، الذين اعتقلهم الاحتلال حتى تتاح الفرصة لرجال الفساد والإفساد الحلول محلّهم، فخالد الثرثار كان طيبًا ونزيهًا أيضاً، على الرغم من ثرثرته المزعجة أحيانًا.

لقد قصَّ عليَّ كيف استطاع رئيس البلدية تحويل قطعة الأرض الخاصة بالبلدية إلى طلال، وكيف تمكن طلال من تمرير هذا الموضوع من خلال عدد ممن يعملون معه هناك بالمدينة، حيث كان يعمل مديرًا عامًا.

فنهب طلال قطعة الأرض التي لم يكتفِ بها، بل زاد عليها قطعًا جديدة من أراضي البلدية بنفس الطريقة، وبذلك حصل كامل ونائبه على حفنةٍ من النقود جرّاء نهبهم لأراضي القرية وأراضي البلدية، أما وسيطهم نجيب، فهو من يدير كل تلك الأمور بمكرٍ يُحسد عليه، كما قال لي خالد الثرثار.

حتى إنني أدركتُ أنَّ الطحين ما كان ليُنهَب هو الآخر إلا بمساعدة رئيس البلدية ومن معه، لأنه كان موجهاً أصلًا للبلدية لكي تقوم بتوزيعه على أهالي القرية.

بل لم يكتفوا بذلك، فقاموا بنهب الطحين الذي يفترض أنه وزع على قريتين بجوار قريتنا، ولم يكن بهما مجلس قروي أو بلدي، فتولّت بلدية قريتنا القيام بتلك المهمة، ونهبت الطحين بدل أن توزعه.

طلال ذلك اللص الفاسد الذي وصل فساده إلى القرى المحيطة بعد أن عاث بقريتنا فسادًا.

ما إن مضى عام على عملي هذا، حتى كنت قد أنهيتُ دروسي في البيت، وقدمتُ امتحاناتي هناك أيضًا عند والدتي، والدتي التي كانت قد درست لغاية الثانوية العامة، ولم تتمكن من إكمال دراستها بسبب بُعد الجامعة عن القرية، ولضيق حالة جدي المادية أيضًا.

في خِضَمِّ العمل والدراسة، كان هناك شيء يقتضي شيئًا لم أدرك ماهيته إلا بعد أن رأيت سلوى.

سلوى ابنة طلال، فلقد بدأتُ أراها عندما كنت أجمع أكياس القمامة من أنحاء القرية، فكنت أراها تقف أمام منزلها بمجرد أن يتوقف خالد مُوقفًا سيارة جمع النفايات لأقفز منها وأحضر كيس قمامة طلال، بل لأحضر كيس قمامة سلوى.

جميلة جدًا، ودلوعة جدًا، كنت أظن أنها تنظر إليّ عندما كنت أقف لأحضر كيس القمامة، لكنها كانت تنظر لعماد المعتوه الذي يلبس ملابسَ رثةً ممزقة.

كيف لها أن تشعر بي؟! أنا المختبئ بداخلي، أنا عمادالدين، أنا الذي يدرس صامتًا مجتهدًا في بيته.

لستُ معتوهًا، كنت أقولها بصوتٍ مكتوم لا تقدر شفتاي على النطق به، فكنت أكتفي بالابتسامة لها.

هي أيضًا كانت تردُّ على تلك الابتسامة بابتسامة، لكنني كنت أدرك أن تلك الابتسامة لم تكن سوى ردّ فعل لا أكثر، وتعلقت بها.

وما زادني تعلقًا بسلوى هو تلك الروايات التي كنت أقرؤها باستمرار، بعد أن حصلتُ عليها من جدتي، فقد كان خالي سالم يهوى القراءة،

وكان قد جمع عددًا كبيرًا متنوعًا من تلك الروايات، منها ما كان جدليًا يتعب الفكر مثل رواية الرجل الذي يكره نفسه، التي كتبها سيد الأدب المناكف كما أسميته، ومنها ما هو بسيط سطحي مثل روايات محمد عبدالله، ومنها ما هو وقح مثل روايات عبير، ما كان يشدني كثيرًا جدًا هو ذلك الأدب العالمي، متجسدًا بروايات ماركيز أو باولو كويلو وغيرهم ممن يكتبون بذلك الأسلوب اللاتيني المخلوط بالسحر القريب من الواقعية شيئًا، والبعيد عنها شيئًا، وجدتُ نفسي بتلك الروايات مُحبًا عاشقًا من طرف واحد.

فلم أحاول على الرغم من مرور فترة طويلة على عملي بجمع النفايات مكالمتها، بل كنت ما إن أراها حتى أشعر بالخجل من ملابسي ومن عملي أيضًا. فقد كنت أدرك أننا نعيش بزمن المادة، ذلك الزمن الذي يُقاس الإنسان بما يملكه من مال في حسابه البنكي.

هكذا علمتني تلك الروايات، فالواقعية جزءٌ كبيرٌ منها، ولا نهايات سعيدة إلا في تلك الأفلام التي لا يطمح صاحبها سوى للكسب المادي، أو الشهرة السريعة، التي من المؤكد سوف تليها سقطة أسرع.

آمل ألاّ تكون السقطة عن ظهر حمار، كي لا يصبح هو أيضًا معتوهًا، على الرغم منه.

كنتُ خلال تلك الفترة قد اجتزتُ الصف العاشر والحادي عشر، وفقًا لحسابات أمي، وبقي لي العام الأخير الثاني عشر، ذلك العام الذي أقدّم به امتحان الثانوية العامة.

حاولت والدتي أن أقدم تلك الامتحانات من خلال مدرسة القرية، كي أحصل على شهادة معتمدة من وزارة التربية، إلا أنّ مدير المدرسة رفض ذلك بشدة لأسباب عددها هو، ولم يشأ طبعًا أن يقول بعد تلك الأسباب كيف لمعتوه أن يفكّر في تقديم هذا النوع من الامتحانات التي يعجز عن النجاح بها العقلاء.

بَكَت والدتي،بحرقة على مجهودها الذي بذلته خلال أعوام ماضية حرصت بها على تدريسي وتعليمي على أحسن وجه، بل بَكَت على صفة المعتوه التي ما زالت صفتي حتى يومي هذا، كم تألمت لأن مدير المدرسة لم يكن يقول لها يا أم عماد، بل كان يلقبها باسم مريم، وكأن عماد، عمادالدين قد مُحي إلى الأبد.

هنا دخل الكُره إلى قلبي فحفر قبرًا عميقًا، ودفن نفسه هناك بداخلي بجوار أحلامي الجميلة التي ذهبت إلى باب الكره يزاحمها المكان، إلا أن أحلامي لم تَمُت، فقد وجدتُ من يسقيها من ماء زمزم، فتغلبت على الكره وأحاطت قبره بقايا من أحلام وردية جميلة.

فقرة (٣)

زمزم..

لقد تعاطفت صديقة والدتي المعلمة مع ما حدث لي، كانت تدرك جيدًا أنني على الرغم من عدم التحاقي بصفوف المدرسة، إلا أنني متفوق، وكانت تعلم أن ما لحق بي من ظلم مردّهُ لعدة أسباب ذكرتها هي لوالدتي.

حيث قالت: إن كره مدير المدرسة لي يعود لكرهه لوالدي المحاضر الجامعي، حيث أنّ والدي كان من رجال الإصلاح في القرية، وقد حَدَثَت بينه وبين المدير عدّة مشادّات، فالمدير من أقارب طلال، وكان يدور بذلك الفلك الفاسد.

في صباح اليوم التالي، توجهت تلك المعلمة مصطحبة معها والدتي وأنا أيضًا إلى مديرية التربية والتعليم بالمدينة، هناك تمكنت المعلمة من إلحاقي بما يعرف بالتعليم المنزلي، وقدّمت الأوراق التي تمكنني من التقدم للامتحانات الخاصة بالثانوية العامة في إحدى مدارس المدينة.

فعدتُ أحمل الأوراق فَرحًا مسرورًا، إلا أنّ المعلمة طلبت من والدتي ألاّ تشيع الخبر بالقرية، لكي لا يقوم مدير المدرسة بتعطيل تقديمي للامتحانات، فهو مدير فاسد، وقادر على إفساد الحق وتحويله إلى باطل، فلم أشارك أحدًا بفرحتي.

وكم وددتُ أن أقول لسلوى على الأقل، للآنسة سلوى، كانت هي الأخرى تقدم امتحاناتها بنفس الفترة.

ولأن والدتي طيبة، ولأنني لم أؤذ أحدًا قط، فأنا أكاد أكون شخصا غير مرئيٍّ، أصلي صلاتي بالمسجد، أصوم، أمارس القراءة كثيرًا دون أن أدخل بتحدٍّ مع أحد، فلا أحد كان يعتبرني مصدرًا للتحدي أو التهديد، فأنا مجرد معتوه، معتوه يصلي بخشوع، ويصوم أيضًا بخشوع، أنا من أولئك الذين يخشون ارتكاب معصية ما لعلمي أني سوف أقف أمام الله مصليا بعد ساعات، فكيف أعصي الله وأنا أصلي له كل يوم خمس مرات؟ فهذه وتلك لا تجتمعان بنظري.

وصلاتي لم تكن أقل من صيامي، فأنا أصوم عن الطعام والماء، وأصوم عمّا هو أهم من ذلك بكثير، وهو أكل لحوم البشر، فلم آكل لحوم البشر قط، فأنا صامت لا أغتاب أحدًا، ولا أنمّ على أحد، فالصمت عن أذى البشر هو صيامي فوق صيام البشر.

وما هي إلا أيام حتى بدأت المعلمة تُحضر معها كل يوم معلمة جديدة تدرسني إحدى المواد العلمية أو الأدبية، كلٌ حسب تخصصه ومجال تعليمه، ولذلك حاولت الحصول على إجازة من عملي في جمع القمامة.

إلا أنّ رئيس البلدية رفض وبشكل وقح قائلًا: إن توقفت عن جمع القمامة أيها الأبله، فمن أين سوف تأكل لتعيش. كدتُ أقول له: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، أيها اللعين المرتشي الجبان.

لكنني لم أقل ولم أنطق، ليس جبنًا أو خوفًا منه، ولا حتى ضعفًا، فأنا الآن أبلغ ثمانية عشر عامًا، وجسدي أصبح قويًا معافىً، بل قويًا أكثر من اللازم، فحمل الطحين سابقًا، ونقل أكياس القمامة حاليًا، جعلاني من حيث لا أدري قوي الجسد.

رفض الإجازة، فقدّمتُ الاستقالة لكي أتفرغ لتلقي الدروس من المعلمات اللاتي كانت تحضرهنّ صديقة أمي، وهنّ معلمات من إحدى المدارس خارج القرية.

فعلى الرغم من أنّ والدتي كانت قد أنهت دراستها الثانوية، إلا أنّ هذا حصل منذ ما يقرب من العشرين عامًا، والمناهج الدراسية تغيرت كثيرًا، ولقد كنت ألاحظ هذا على والدتي، التي كانت تواجه صعوبة بشرح بعض الأمور لي، إلا أنني كنت أقوم بشرحها لها بشكل مبسط، فكانت تردد: التلميذ أصبح أستاذًا.

معلمة الرياضيات قالت: هذا الشاب لا يحتاج لمن يقوم بتدريسه المنهاج المدرسي، فهو عبارة عن آلة حاسبة متنقلة، ألم تلاحظي يا أم عمادالدين أنكم لا تملكون آلة حاسبة في بيتكم؟ وأنّ ابنك عماد كان يعتمد على نفسه بحلّ المعادلات الحسابية التي يفترض حلّها من خلال الآلة الحاسبة؟؟

صدقيني يا أم عماد، ابنك لا يحتاج معلمة، بالذات بمادة الرياضيات والحساب.

ولم يختلف كثيرًا رأي معلمة اللغة الإنجليزية، فقد قالت: هذا الطالب يحفظ كتاب اللغة الإنجليزية عن ظهر قلب، ويجيد التَّحدث باللّكنة الإنجليزية البريطانية بشكل مذهل، بشكل لا أتمكن أنا معلمة اللغة الإنجليزية من إجادته، فكيف حدث هذا معكم؟ قولي يا أم عماد بالله عليكِ، فقالت أمي: لا أعلم.

نظرت كلتاهما إليَّ فقلت: لقد كنت أتابع القنوات الفضائية البريطانية والأسترالية منذ أعوام طويلة، ولذلك كنت أكرر ما يقولونه بنفس اللكنة الأصيلة، لأنني أردت أن أتقن الإنجليزية التي كنت أقرأ مفرداتها بالقاموس المترجم من الإنجليز وليس الأمريكان، فالإنجليز هم المنبع، وأنا أحب المنابع العذبة، لا مصبّات الأنهر، فمصبّات الأنهر غالبًا ما تكون ملوثة بما تحمله في طريقها، فأردتُ أن أحافظ على ماء نهري صافيًا من مصدر ومنبع صافٍ.

لم تفهم أمي كلمة مما قلته، إلا أنها قالت: ما رأي المعلمة بما قاله عمادالدين؟

قالت المعلمة: بالله عليكِ يا أم عمادالدين أن تُبَخِّري ابنك وأن تَرقيه من الحسد، فعماد تجاوز مرحلة تعلم اللغة إلى مرحلة تعليمها، فهو قادر الآن من خلال إمكانياته أن يقف بأي صف تعليمي ليدرس الطلبة مادة اللغة الإنجليزية، حماك الله يا ولدي يا عماد.. قالت المعلمة.

وكررت والدتي ما قالته المعلمة أيضًا: حماك الله يا ولدي.

كنت أراقب عيون والدتي عندما كانت المعلمات ينادينها يا أم عمادالدين، عيون أمي ترقص فرحا، فلقد حُرمت من سماع تلك الكلمة منذ زمن طويل، تلك الكلمة التي كان والدي يرددها على مسمعها منذ زمن، ما أسرع دمع عيون الأم! فهي تبكي وتدمع إن حزنت، وتبكي وتدمع إن فرحت، انهالت دموع أمي ممزوجة بالابتسامة والفرح.

سارعتُ إلى إحضار القرآن الكريم، ووضعت يدها على رأسي، وبدأت تقرأ الآيات القرآنية المباركة، مثلما كانت تفعل منذ ذلك اليوم، يوم الحمار. فيوم الحمار هو اليوم الذي بدأت به تقويمًا جديدًا،

فهناك التقويم الميلادي والتقويم الهجري والتقويم الصيني، لحساب السنين، وهناك تقويمي أنا المعتوه الذي بدأ يوم سقطت عن ظهر الحمار، أي منذ نحو ستة أعوام.

معلمة اللغة العربية لم تكن كبيرة بالعمر مثل المعلمتين السابقتين، فقد كان عمر معلمة الإنجليزي والرياضيات يقارب عمر أمي أو يزيد، أما معلمة اللغة العربية، فلم يكن عمرها يكبر عمري إلا بعدة أعوام، فأنا ابن الثامنة عشر وهي لم تتجاوز الثلاثين عامًا.

ما إن بدأنا دروسنا حتى لفتَ انتباهها كمُّ الكتب التي تملأ مكتبة منزلنا، فهناك كتب والدي المحاضر الجامعي، وهناك مجموعة من الكتب والروايات التي حصلتُ عليها من مكتبة خالي سالم بعد سفره للدراسة في كوبا، أما الأهم فكان مجموعة من الكتب التي كنت قد اشتريتها من المدينة.

فقد كنت أملك الكثير من كتب الأديب عبدالرحمن منيف، وبخاصة مجموعة كتب مدن الملح، فالتقطت إحدى أجزاء تلك المجموعة، وسألتني: هل قرأته يا عماد؟ قلت: نعم.

قالت: وكيف وجدته؟ قلت: إنه الأديب الأستاذ عبدالرحمن منيف. قالت: توقف بالله عليك توقف.

قلت: ماذا حدث؟ قالت: ألا تعلم ماذا حدث؟ قلت: لا والله، لا أدري، قولي أنت يا معلمتي ماذا حدث.

كلّ ذلك جرى ووالدتي تشاهد ما يحدث وهي صامتة.

قالت المعلمة: يكفي أن تصف عبدالرحمن منيف بأنه أستاذ وأديب، لأنه بمجرد وصفك له على هذا النحو يعني أن كتاباته قد تركت أثرًا بداخلك، فالأستاذ الأديب عبدالرحمن منيف هو علامة، علامة فارقة بالأدب العربي المعاصر.

قاطعتها قائلًا: نعم هو كذلك، بل أكثر، فلقد كان واضحًا شفافًا، جعلني أرى وأعي عبر أوراق كتبه فترات زمنية ليست بعيدة جدًا، أحياها بواقعية الحاضر..

قالت، وقلت.. وأمضينا كل الوقت بمناقشة ما كنت قد قرأته أنا، وما كانت هي قد قرأته.

نظرت إلى ساعة يدها وأدركت أنّ عليها الانصراف، فقد مضى الوقت سريعًا عبر حديث جرَّ حديثًا آخر. فغادرت على أمل العودة غدًا لإكمال مراجعة المنهاج الدراسي معي استعدادًا للامتحانات.

كانت تلك أول مرة بحياتي أحادث بها امرأة، فلقد كانت المعلمة نادية متزوجة من معلم لمادة التاريخ، وكانا هما أيضًا كثيرًا ما يتحدثان ويناقشان ما يقرآنه مع بعضهما بعضًا.. هذا ما قالته لي، وهنا أدركت أن المرأة ليست مجرد أم حنون أو حبيبة جميلة، بل إنها كانت مكمّلًا للرجل، فالرجل يبقى شيئًا غير واضح المعالم إن لم تكن هناك امرأة بحياته تكمّل ما غفل الرجل عن إدراكه، فنحن الرجال نغفل عن أمور كثيرة، ولا ندقق بالتفاصيل الدقيقة والمهمة أبدًا.

عادت باليوم التالي حسب الوعد، وما إن دخلت حتى تبعها زوجها، فسلّم عليَّ، وجلس وأعطاني عدّة أوراق حتى قبل أن يتم جلسته بشكل مريح.

كانت تلك الأوراق مجموعة قصاصات من صحف قديمة، تعود لمقالات كتبها والدي قبل أعوام طويلة جاوزت العشر سنوات، فلقد كان زوج المعلمة نادية طالبا عند والدي بجامعة القدس المفتوحة، هناك تعرّف على والدي، وهناك بدأ يجمع ما كان والدي يكتبه عبر الصحف.

كان مهتمًا جدًا بسؤالي عن ما حدث مع والدي، فقصصت عليه ما كان قد حدث معه من استشهاد على يد عصابة من المستوطنين الصهاينة.

أراد أن أقول له المزيد، لكنني لم أكن أعرف أكثر، فقد كنت طفلًا صغيرًا عندما فارقني والدي، ولا أذكر المزيد، فبدأ هو يقصُّ حكايته مع والدي، ومن تلك الحكاية علمتُ كيف كان والدي معلمًا وصديقًا وأبًا لطلبته.

أمضينا ذلك اليوم بمراجعة دروس اللغة العربية تارةً، وبمراجعة دروس التاريخ تارةً أخرى، تاريخ كتب التاريخ المدرسي، وتاريخ ذكرياته مع والدي.

تكررت تلك الزيارة حتى أيقن تلميذ والدي وزوجته المعلمة نادية من أنني أصبحت مستعدًا لمادة التاريخ ومادة اللغة العربية.

استمرت صديقة والدتي بإحضار المعلمة تلو الأخرى، هذه لمادة الفيزياء، وتلك لمادة الأحياء، والأخرى لمادة الكيمياء، كنت أشعر أن المعلمات قد أصبحنَ يأتين إلى منزلنا لهدفين: أولهما مشاهدتي والتعرف عليَّ، وثانيهما تدريسي وإعدادي للامتحانات.

لم تكن أيٌّ من المعلمات تعلم قصتي ووصمة العَتَه التي التصقت بي زورًا وبهتانًا. فلم تكن صديقة أمي قد أخبرتهن عني أي شيء حول تلك الحكاية.

فكل ما كان يدور بذهن أولئك المعلمات هو أنّ هناك تلميذًا متفوقًا، منعته الظروف من الالتحاق بالتعليم المدرسي العادي، فالتحق بالتعليم المنزلي.

بَدَأت الامتحانات، وأصبحتُ أتوجه للمدينة لتقديمها هناك.. أغادر القرية معتوهًا، وأدخل المدينة وصولًا لقاعة الامتحانات موهوبًا متميزًا.

في مدرسة المدينة، تعرّفتُ على طلاب كانوا يشاركونني تقديم الامتحانات هناك، فكنّا نتناقش حول الدروس وأسئلة الامتحانات، فبدأتُ أحبُّ صحبتهم وأمضي معهم أطول وقت ممكن قبل العودة إلى قرية العقلاء، قبل أن أعود إلى العَتَه في دائرة العقلاء.

استمر هذا الحال نحو أسبوعين، انتهت الامتحانات، وعدتُ أَعُد الأيام مع والدتي بانتظار النتيجة.

قبل أن تظهر نتيجة الثانوية العامة الخاصة بالتعليم المنزلي، ظهرت نتيجة طلبة مدرسة قريتنا أولادٍ وبناتٍ. فكانت سلوى ممن لم يحالفهم الحظ بالنجاح.

أما ابن مدير المدرسة وابن أخيه معلم مادة الفيزياء فقد نجحا. نجحا نجاحًا أقرب ما يكون للسقوط، فلم يكن معدلهم قد تجاوز علامة الخمسين سوى ببضع علامات فقط. فخاب أمل مدير المدرسة بأن يُكمل ابنه الدراسة الجامعية المحلية، لضعف معدله، وخاب أمل أخيه الآخر بولده هو أيضًا.

لم يقيموا الأفراح بتلك المناسبة، بل كانت القرية تحيا تحت ظل غمامة من الحزن المجبول بالغضب.

أُعلنت نتيجة الدراسة الخاصة وظهرت نتيجتي، حَضَرَت واقفةً على باب منزلنا، فلم نذهب إليها، بل هي من أتت نحو قريتنا باحثةً عن منزلنا.

كانت تسأل عن منزل الطالب المتفوق عمادالدين، أين المنزل؟ دلوني عليه؟ فدلوها على منزل معتوههم عماد.

مذيعة من تلفاز فلسطين تقف أمام باب منزلنا، ومن خلفها مصورٌ يحمل كاميرا.

مبروك يا عمادالدين، لقد حصلت على المرتبة الثانية على مستوى الوطن كلّه، فأنت الثاني على فلسطين بأسرها.

قبل أن أجيب، سقطت أمي مغمىً عليها، فعملنا على إعادتها إلى وعيها، ثم بدأت تزغرد وتضحك وتبكي، كل ذلك فعلته دفعة واحدة، هي أمي مثلها مثل كل الأمهات.

كررت المذيعة ما قالته، فسمعها أهل القرية، قرية العقلاء، سمعوا جميعًا أن معتوههم قد حصل على أعلى المراتب بامتحان الثانوية العامة، كنتُ أشاهد وجوههم، وتلك التعابير التي عَلَت تلك الوجوه، طلال، وحسن، ونجيب كانوا هنا، وكان معهم مدير المدرسة وأخوه المعلم، حتى خالد كان هنا، خالد الثرثار الطيب.

كان خالد سعيدًا جدًا، وبدا ذلك واضحًا عليه، أما طلال فكان ناقمًا ولا يقلّ عنه نقمة مدير المدرسة.

أكان كل ذلك الكره والنقم البادي عليهم بسببي أنا، أم بسبب والدي، الذي كانوا يعتبرونه شوكة تخزُ ضمائرهم الميتة.

ما زادهم غضبًا على غضبهم هو حضور صديقة والدتي ومعها المعلمات اللواتي كنَّ قد تَوَلَّينَ إعدادي جيدًا للامتحانات، حضرن وبدأن يزغردن.

وزَّعت والدتي الحلوى على جميع بيوت القرية في ذلك اليوم.

أجريت المقابلة مع مذيعة التلفاز الفلسطيني، شكرتُ بها والدتي كثيرًا، محاولًا ردَّ بعض ما لاقته من عناء حتى أوصلتني إلى ما وصلتُ إليه، وحمدتُ ربي كثيرًا على أنه أنعم عليَّ بأم كانت وما زالت هي الوالد والوالدة، هي الدائرة المضيئة التي أنارت لي حياتي، وسط دوائر الظلم والظلام، دوائر العقلاء.

ولأن الأفراح تأتي هي الأخرى مجتمعة مثلها مثل الأحزان، فلقد وصل خالي سالم قادمًا من كوبا بعد أن أنهى ستة أعوام بدراسة الطبّ هناك.

عاد طبيبًا رجلًا بعد أن غادر منذ أعوام شابًا لا يذكره أحد، سهرتُ عدّة ليالٍ بصحبة خالي سالم، حدثني بها عن كوبا وعن الثورة هناك، وعن حصار أمريكا لكوبا وثورتها، وأمور أخرى كثيرة تحدثنا بها.

شيئًا فشيئًا علم سالم ما كان قد حلّ بي جراء تلك السقطة من على ظهر الحمار، فهو كان قد سافر قبل أن أعود من رحلة علاجي في عمان، سافر على أمل أنني سوف أشفى.

سالم لم يكن قد عاد ليستقر، بل عاد للزيارة فقط، فهو يريد إكمال دراساته العليا عبر تخصصه في أحد مجالات طبّ العيون، وكان قد حصل على منحة دراسية في إحدى جامعات إسبانيا، فسافر بعد قضاء عدة شهور في القرية.

قبل أن يسافر صنع لي معروفًا عظيمًا أظنّه قد عوضني عما حلّ بي جراء سقطتي، والذنب الذي كان هو يُحمِّلُهُ لنفسه، فلقد استطاع سالم أن يحصل لي على بعثة لدراسة الحقوق بالولايات المتحدة الأمريكية، وهي بعثة تشمل كامل تكاليف الجامعة، وليس مطلوبًا مني سوى تدبير تكاليف معيشتي هناك، موصيًا عليَّ بعض أصدقائه ومودعًا إياي.

سافر سالم ليكمل دراسته، وما هي إلا بضعة أيام حتى كانت أوراقي قد اكتملت، فودعتُ أمي وسيدتي ومعلمتي العظيمة، أم عمادالدين، ودّعتها وودّعت صديقتها وكلّ المعلمات اللواتي قدّمنَ لي المساعدة.

اشتريتُ تذكرة للسفر بالمال الذي تركه لي خالي سالم، وركبتُ الطائرة من عمّان التي وصلتُ إليها قادمًا من الضفة الفلسطينية.

في تلك الرحلة لم أصطحب معي سوى بعض صورٍ لأمي وأبي، وقصاصات الجرائد التي حوت مقالات أبي المنشورة.

أمريكا.. قادم إليك أنا، فاستعدي لقدومي.

لم أكن مغرمًا بأمريكا على الإطلاق، بل كنتُ أميل إلى الجزء الجنوبي من تلك القارة، فأنا ممن أحبّ دول الجنوب، تلك الدول التي تعرفت عليها من خلال كتابات ماركيز وباولو كويلو وغيرهم.

فأحببت تجربة جيفارا، ولم أحبب من قتلوه، واحترمت هوكو شافيز واحتقرت من تآمروا على فنزويلا، وعليه، على الرغم من أنهم من أبناء شعبه.

فأمريكا هي مصبّ النهر الذي حمل معه الطيب والخبيث، وأخبث ما كان ذلك النهر قد حمله معه لهناك هو الصهاينة، فلذلك استولوا على الاقتصاد وعاثوا به فسادًا.

كانت الأزمة المالية قد أظهرت كم أنّ أمريكا ضعيفة، وأنها ليست سوى فقاعة سوف تنتهي عندما يحين الوقت، وكنت أعلم مدى تأثير الصهاينة هناك من خلال وسائل الإعلام المملوكة لهم.

فهم إله من المال والربا، ومن الإعلام والفساد الأخلاقي، ولا أنسى أنهم هناك يملكون اللوبي الصهيوني الذي حوّل حكام ورؤساء أمريكا إلى مجرد دمى تتراقص عندما يحرك الصهاينة خيوطها.

حتى إن أحد مرشحيهم قال في إحدى جولاته الانتخابية: إن الشعب الفلسطيني هو شعب مختلق، وأنه مجرد كذبة لا أكثر.

قال ذلك متباهيًا عندما أجرت معه إحدى قنوات التلفزة الصهيونية مقابلة.

ولا أنسى كيف أن مرشحي الرئاسة هناك في أمريكا يأتون إلى فلسطين المحتلة، فيزورون حائط البراق، واضعين أوراقهم بين جدران الحائط،

طالبين من ربهم الأعظم بني صهيون، أن يساعدوهم للنجاح بتلك الانتخابات.

لم يكن أولئك الرؤساء يأتون لحائط البراق مصلين، طالبين من الله الواحد الأحد العفو عما ارتكبوه من آثام، بل كانوا يأتون ليقدموا فروض الولاء والطاعة لأسيادهم الصهاينة.

محملًا بتلك الأفكار، وصلتُ إلى أمريكا، ومحملًا بحلم النجاح والتفوق أيضًا، حلم الخروج من دائرة عقلاء قريتنا، هاربًا من وصمة العَتَه، وصلتُ للمطار، ما إن حطت الطائرة حتى أُخضعتُ للتفتيش الجسدي المهين، ثم إلى تحقيق واستجواب.

ما أثار غضبهم نوعًا ما هو تمسكي باللكنة الإنجليزية أولًا، وثانيًا عندما سُألت عن اسمي وقلت: عمادالدين.

طلبوا مني أن أشرح لهم معنى اسمي، فقلت: إنني عمادٌ للدين، وعن أي دين تتحدث؟

الدين الإسلامي، ذلك الدين المتسامح، دين رب المغفرة، دين الرحمن الرحيم، ذلك الدين الذي وصفوه بالإرهاب زورًا وبهتانًا، فظلموه وشوهوه، ولكن هيهات لهم مرادهم أن ينالوا من دين ربي، فهو أنزل القرآن الكريم، وتكفل بحفظه، وهو من أرسل سيد الخلق محمد عليه أفضل السلام وأعظم التسليم للناس كافة.

لم أكن متحمسًا للدراسة في أمريكا، ولولا أنَ البعثة التي قد حصلت عليها كانت من رجل أعمال فلسطيني يعيش هناك، لما فكرتُ بأن تطأ قدماي تلك الأرض.. الأرض الأمريكية التي صُنعت عليها القنابل والصواريخ التي دمرت جنوب لبنان، ودمرت مدنه وقراه أيضًا، الصواريخ التي صُبّت مع قنابل الفسفور الحارق، فقتلت المئات في قطاع غزة المحاصر، وهي أيضًا الأرض التي صُنعت عليها جرافات الكتربلر الضخمة التي داست على أبناء شعبنا وعلى راشيل كوري الناشطةَ الداعمة للسلم والسلام.

مرغمًا لا بطلًا، وصلتُ لطلب العلم في بلاد العم سام، بلاد اللوبي الصهيوني.

أحمد الله أنني هناك وصلتُ، ولم أصل على أرض غوانتانامو، مثلي وصل الصحفيون والأطباء والمعلمون محملين بتهم ما أنزل الله بها من سلطان، فقد ظُلموا وأخذوا بجرائم أعمال لم يقوموا بها أصلًا، ولم يكونوا يوافقون على ما أقدم عليه تنظيم القاعدة أبدًا.

وهذا ما كان غالبية المسلمين في جميع أرجاء العالم يرفضونه، يرفضون ضرب البرجين ويعتبرونه جريمةً وخطًا.

حالهم حالي أيضًا.. فأنا المعتوه أعتبر أن ضرب البرجين قد ألحق بالقضية الفلسطينية الأذى الكثير، ومكّن الصهاينة من تجيير ما حدث ليقلبوا مقاومتنا على تراب فلسطين، ويصفوها هي الأخرى بالإرهاب.

نحن الذين نقاوم المحتل، أصبحنا إرهابيين، ومن احتل أرضنا أصبحوا ضحايا ومساكين، سحقًا لعالم دائرة العقلاء هذا، عالم ظالم.

مكتبة
t.me/t_pdf

فقرة (٤)

البسطاء

هذا هو العالم الذي أحببته، عالم البسطاء، أولئك الذين يدفعون الضرائب، وبدلًا من أن يتلقوا الخدمات مقابل تلك الضرائب، فإنهم يتلقون الضرب من قبل أصحاب المعالي والفخامات.

ما إن انتهى التفتيش حتى تركتُ المطار، متجهًا إلى مبنى الجامعة، تاركًا خلفي داخل صالات المطار أفكاري القديمة، باحثًا عن أفكار وآراء جديدة.

وصلتُ إلى حرم الجامعة، فتمَّ إرشادي إلى غرفتي بالسكن المخصص للطلاب، كانوا ملونين، لكنني لم أكن، فأحدهم أسمر البشرة هادئ التقاسيم، والآخر لاتيني مهندم، والثالث من أبناء الشعب الصيني الأصفر.

وهكذا حصلت على الأسمر والحنطي والأصفر، وأنا على الرغم من كوني مسلمًا عربيًا كنعانيًا، إلا أنني كنت أبيض البشرة، وكانت عيناي بلون عسلي فاتح يشبه لون شعري، لذلك ما إن بدأتُ الكلام معهم حتى أجمعوا كلُّهم على أنني بريطاني الجنسية بسبب لكنتي ولوني.

حاولت إقناعهم بعكس ذلك، وعلى الرغم من أنهم رأوا جواز سفري الفلسطيني، إلا أنهم قالوا إن مولدك هناك لا يؤكد لنا أنك أصلًا من هناك، فقلت لهم: كما تشاؤون، فسأكون الإنجليزي إذًا.

علمت بعد ذلك أن هؤلاء الثلاثة قد وُضعوا معًا في تلك الغرفة لأن بعض البيض أمثالي رفضوهم، فضايقوهم مما دفعهم ليتركوا تلك الغرف والتجمع هنا، وبما أنني وصلتُ متأخرًا بعد بدء الدراسة بعدة أيام، فقد وُضعتُ عندهم.

حاول طالب لاتيني أن يجعلني أغير مكاني بالغرفة بمكان بطرف آخر، لأنه تعرض هناك للمضايقة، فرفضتُ بشكل قاطع، مؤكدًا أنني مرتاح مع أصدقائي الجدد، فأُعجب زملائي بذلك.

وقال أحدهم: حَسِبنا أنك سوف تقبل العرض الذي قُدِّمَ لك، لتنتقل للعيش بمكان آخر بعيدًا عن المُلوَّنين ومشاكلهم، فقلت لهم: أنا جئت هنا لدراسة الحقوق.. تلك الحقوق التي صارع لأجلها لوثر كينج ليحصل على حقه، فأنا ابن أرضٍ محتلة، وابن شعب مضطهد.

يكفي مزاحًا أيها الإنجليزي، قال أحدهم.

رد عليه الآخر: لا، أنا أعلم حقيقة عماد، عماد هو إيرلندي من أولئك الذين يصارعون الإنجليز لاسترداد حقوقهم، وطرد الاحتلال الإنجليزي للجزء الشمالي من إيرلندا.

قلت: أنا عربي، مسلم عربي فلسطيني، ضحكوا وضحكت.

قبل أن ينفد ما معي من مال كان قد أعطاني إياه خالي سالم، حصلتُ على وظيفة بمطعم الجامعة، حيث كان ماركو يعمل، ماركو هو الطالب اللاتيني، وبذلك استطعتُ حلَ مشكلة الأكل، وتمكنت من توفير بعض الأوراق النقدية.

كانت أيام العام الدراسي الأول تمضي مسرعةً دون أي نوع من المنغصات، بل كان الروتين القاتل هو سيد الموقف، ما بين المحاضرات والعمل في مطعم الجامعة، ثم العودة للدراسة، لم يكن هناك شيءٌ آخر.

لقد احترم ماركو وديفيد الأسمر وكيم الصيني خصوصيتي في أداء فرائضي الدينية، فلقد كنت أصلي الصلوات الخمس دون أن ينزعج من ذلك أحد.

مارك كان هو الآخر يصلي ويضيء الشموع أمام أيقونة العذراء مريم، أما كيم فعلى الرغم من أنه بوذي، إلا أنه كان يحبّ علوم الأديان، وكان يفاجئني عندما أراه وهو قادم نحوي يحمل معلومة عن المسلمين، فلقد كان كيم مدمن كمبيوتر، وكان يمضي وقته بتصفح المواقع المختلفة.

أما أبو سمرة، ديفيد، فقد كان يمضي وقته ما بين المحاضرات والجِم الرياضي.

في نهاية ذلك العام، تمكنت من شراء حاسوب لي، كما تمكنت من شراء عدد من الهدايا التي أرسلتها لوالدتي هناك في فلسطين، وأرسلت معها شهاداتي العلمية، وعددًا ليس بالقليل من الصور.

فعلى الرغم من وجودي بعيدًا عن أمي.. إلا أن جسدي هو الذي كان قد فارق فلسطين، أما روحي فقد بقيت هناك.

كنت أحرص على مكالمة والدتي كلما أمكنني ذلك، فقد كنت أعلم كم كانت جدتي تعاني من تأخر خالي سالم عن الاتصال بها، لذلك لم أشأ أن تعاني أمي أبدًا، وكنت أتصل بجدتي أيضًا لأطمئنها عليَّ.

بدأ العام الدراسي الثاني، بدأ بعد أن كنتُ قد عملتُ بالعطلة الصيفية في إحدى الصالات الرياضية، كانت صالة جم محترمة، فعملت بها وكسبت مالًا جيدًا.

ما إن بدأت الدراسة حتى عُدتُّ إلى عملي السابق في المطعم.

دَخَلَتْ هادئة مترددة، وتوجهت نحو مكان سكب الطعام والحصول عليه، سألتها ماذا تريد مني أن أسكب لها داخل صينيتها، فكانت تشير بيدها فأسكب.

انتهيتُ فقالت: شكرًا، رددتُّ عفوًا.. قالتها بالعربية ورددت بالعربية أيضًا، نَظَرَت إليَّ وكأنها استيقظت من كابوس لتدخل نحو حلم، فقالت: أنتَ عربي؟ قلتُ: مسلم فلسطيني.. وأخضع للاحتلال أيضا مجبرًا بحكم قانون دائرة العقلاء.

قالت: أنا سحر

قلت: سحر؟

نعم أنا سحر..

أنا عماد، عمادالدين

أنا فلسطينية مسلمة أيضًا، ولدتُّ وعشتُ في تشيلي، إحدى دول أمريكا الجنوبية، لذلك أنا أجيد الإسبانية والعربية، وقليلًا من الإنجليزية أيضًا، قالت.

قلتُ: وأنا فلسطيني أيضًا، مسلم أيضًا، لا أتحدث الإسبانية أبدًا.. ضَحِكَتْ وضحِكْتُ.

توجهتْ إلى أحد المقاعد وجَلَسَت لتأكل.

انشغلتُ بعملي محاولًا إبقاء عينيَّ عليها، ولكن ما إن غَفلَت عيني قليلًا حتى كانت قد اختفت.

بحثتُ عنها في أنحاء الكلية والجامعة، لكني لم أتمكن من إيجادها.

انتظرتُها في اليوم التالي فلم تحضر، لا بذلك اليوم ولا في الأيام التي تلته، وكما يقال: البعيد عن العين.. بعيد عن القلب.

نسيتُها، ولم أعد أتذكر منها سوى ابتسامتها الخجولة الجميلة..

على هذا النحو انقضى العام الثاني هادئًا تمامًا مثل العام الذي سبقه..

يبدو أن اتجاهي لإدارة حياتي بأسلوب البسطاء كان فعالًا ومجديًا.

على الفور، ما إن أنهيتُ دراستي حتى عاودتُ عملي في النادي الرياضي المحترم، وعندما أقول (محترم) لأنه يقدم خدماته للطبقة الثرية في المجتمع، تلك الطبقة التي لا ترى تحت أقدامها أبدًا، فهي طبقة تعتبر أن سقفها السماء وأكثر..

أما أنا البسيط حاليًا، الأبلهُ سابقًا، فكنتُ أعمل على الاهتمام براحتهم وتنظيف ما يقع تحت أقدامهم، هذا عملي في النادي الرياضي، أنظِّفُ الأرض وأُلَمِّعُ الآلات والمعدات المخصصة للتدريب.

مضى يوم أو اثنان على عودتي لذلك العمل الجديد القديم، ذلك اليوم الذي أعادني إلى يوم سقطتُ عن الحمار، يبدو أنه حلَّ من جديد وبصورة أخرى، فلقد سمعتُ صوت عراك وأنا أغادر النادي متجهًا إلى موقف السيارات، حيث كنتُ أوقف دراجتي الهوائية، فاندفعتُ نحو ذلك الصوت، فوجدتُ شابين أحدهما كنت أعرفه من خلال تدريبه عندنا بالصالة الرياضية، كان اسمه كوهين، أما الآخر فلم أكن أعلم اسمه، لكنني كنت أشاهده أحيانًا.

كان الاثنان يضايقان فتاة، ويكيلان لها أبشع العبارات العنصرية النابية..

اقتربت أكثر وأكثر، فرأيتُ سحر تقفُ محاولةً صدَّهما عنها، لكنهما واصلا كيل الشتائم، ولم يهتما أصلًا لوجودي، فأنا مجرد عامل تنظيف، من أولئك البسطاء، الذين لا يُحسب لهم حساب أبدًا.

مد كوهين يده باتجاه سحر فمزَّق جيب قميصها، ذلك الجيب الذي كان ذنبه الوحيد أنه يحمل علم فلسطين، ألقى كوهين الجيب المطرز بالعلم أرضًا، وحاول انتزاع الكوفية الفلسطينية من كتف سحر، كنتُ في هذه اللحظة قد وصلتُ تمامًا إلى حيث يقفون، فقد أسرعت الخطا نحوهم.

كوهين كان هدفي، فانهلتُ عليه باللكمات حتى أدميتُهُ وسقط أرضًا، أما رفيقه فقد سقط من اللكمة الثانية.. وأظنه سقط خوفًا لا ألمًا.

وضعت سترة بدلتي الرياضية على كتف سحر واصطحبتها نحو سيارتها، ودَّعتها باكيةً، وعدتُ نحو دراجتي لأركبها وأعود إلى منزلي.

ركبتُ وانطلقتُ، وما هي إلا ساعات قليلة حتى جاءت الشرطة لتطرق باب منزلي لتعتقلني، ولتقتادني مكبَّلًا إلى مركز شرطة المدينة، قالوا لي: أنت عنصري مجرم، وانهالوا عليَّ بالاتهام تلو الاتهام، دافعتُ عن نفسي محاولًا الاستشهاد بسحر، فبحثوا عنها ولم يجدوا لها أثرًا.

فقد قام محامي والد كوهين برشوة مراقب كاميرات المراقبة الموجودة بمواقف السيارات، فأتلف الشريط ووضع مكانه شريطًا فارغًا، وادعى مراقب الكاميرات أنّ أجهزته كانت معطلة، مستشهدًا بتقرير مزور.

ولأن العنصري المجرم الإرهابي هو المعتوه البسيط أنا، فقد تم تحويل القضية من قضية للدفاع عن فتاة من تحرش صهاينة عنصريين بها، إلى قضية فلسطيني عنصري انهال بالضرب على صهاينة طيبين مسالمين مساكين، وألقوا بي في السجن.

هناك زارني ماركو وديفيد وكيم، طلبتُ منهم البحث عن سحر، حاولوا لكنهم لم يستطيعوا إيجادها، لكنها هي من وجدتهم بعد أن جاءت للبحث عني، جاءت مع والدها وهو رجل مصرفي معروف في تشيلي، يدير ويملك مصرفًا أو بنكًا هناك.

جاء وحوله عددٌ من المحامين الذين لم يكن المال قصدهم، بل جاءوا متعاطفين متضامنين، وخاصة بعد أن علموا الحقيقة التي قالتها لهم سحر، وبعد أن علموا أن عامل مراقبة الكاميرات كان جزءًا من التواطؤ مع المحامي الصهيوني، محامي كوهين.

بدأ المحامون الذين حضروا مع والد سحر بالتفاوض مع محامي كوهين، فتمكنوا من الحصول على تسوية بألاَ تقدم سحر شكوى مقابل أن يسحب كوهين شكواه هو الآخر، ففعل ذلك، وأُطلق سراحي.. لكن ليس إلى الجامعة، فقد ضغط والد كوهين على الجامعة لطردي منها، وهذا ما فعلتهُ إدارة الجامعة.

طُردتُ وأمهلتُ ثلاثين يومًا لكي أغادر أمريكا، تبخَّرت المنحة، وأصبحتُ بلا بعثة وبلا جامعة.

سحر علمت بذلك كلّه، فلقد كانت تتابع الأمور عن كثب.

لَم ألُمْ نفسي على ما حدث، فأنا لم ألُمْ حماري أول مرة، فكيف ألوم عمادالدين؟ عمادالدين الذي لم يرفع يده على أحد طوال حياته، عماد الذي عندما رفع الراية الخضراء ضُربَ وضُرب.

ألم تعاهد نفسك على أن تحيا حياة البسطاء البلهاء، أم أنَ النخوة هي من دفعتك لما قد تندم عليه لاحقًا، أم أنّه الحبَ؟!

لا ليس الحب.. بل هي الكرامة، عندما ضُربتُ هناك في فلسطين كنتُ طفلًا صغيرًا، وكانوا هم كبارًا أقوياء.

عندما استشهد والدي كان محاضرًا جامعيًا مسالمًا، وكانوا هم بربريون مستوطنون همجيون، مسلحون.

لقد فعلتُ الصواب، وسوف أتحمل عواقب فعلتي.

سحر.. أحبَّت ذلك الفلسطيني الذي دافع عن شرفها، فقد قالت لنفسها: لو لم يحضر عماد لكنتُ قد خسرتُ شرفي وكرامتي بذلك اليوم، وأصبحتُ مغتصبةً على يد هؤلاء الصهاينة، مستباحةً لهم.. مثل بلدي فلسطين.

عماد أصبح البطل المخلَص لدى سحر، بل لدى والدها أيضًا، فلقد أحبني والدها، وكانت هذه هي البداية، فقد حضر بطائرته الخاصة من تشيلي لأمريكا بعد أن أخبرته سحر بما حصل معها ومعي، حضر مدافعًا عن شرفه عبر دفاعه عني.

انقضت الثلاثون يومًا ولم أتمكن من تسجيل نفسي بأيٍّ من الجامعات التي حاولتُ الوصول إليها، فقد كان والد كوهين ونفوذه أسرع مني بالوصول إليها.. فأوصدت أبوابها بوجهي..

هل أعود إلى قرية العقلاء، بعد أن طردتُ من دولة العقلاء ومعقل الصهاينة؟

لست أدري، فعلى الرغم من أنني مؤمن مصلٍ، وعلى الرغم من رضائي بقضاء الله وقدره، إلا أنّ هناك غمامة سوداء شعرتُ أنها أحاطت بي، وكتمت على أنفاسي.

قدر الله ألاّ تدوم هذه الغمة طويلًا.

فقد تلقيتُ اتصالًا من السيد نزيه والد سحر، قال لي فيه :اسمع يا ولدي، لقد تمكنتُ من الحصول لك على قبول في إحدى جامعات تشيلي لتكمل دراستك في مجال الحقوق، كلّ ما عليك فعله هو حزم أمتعتك والصعود إلى الطائرة، لقد تركتُ لك لدى مكتب الخطوط الجوية التشيلية تذكرة سفر باسمك، أرجو منك يا ولدي أن تقبل مني هذه المساعدة البسيطة، وأن تعتبرها جزءًا بسيطًا من ردّ الجميل لك.

قلت أنا: سيد أبو سحر، أنا..

قال السيد نزيه: أولًا أنا يقال لي أبو صالح، فصالح هو ولدي الأكبر، وقد سمّيته على اسم والدي.

قلت: حسنًا سيد أبو صالح

قال: أبو صالح بلا سيد ولا غيره

قلت: أبو صالح، أشكرك على ما فعلته، لكنني لا أستطيع قبول ما عرضته عليَّ، فأنا أعلم أن تكاليف الدراسة بالجامعة عالية، ولذلك أفضل العودة إلى فلسطين، وهناك سوف ألتحق بإحدى الجامعات، فكما تعلم أن علاماتي في الثانوية العامة كانت عالية جدًا، ولولا حصولي على منحة جامعية لما قَدمتُ للدراسة في أمريكا.

قال: اسمع يا ولدي، أنا لا أقدم لك أيّ منحة هنا أبدًا، أنا كلّ ما قمت به هو أنني ببعض الاتصالات مع أصدقاء لي، تمكنت من الحصول لك على الموافقة بالدراسة بتلك الجامعة، أما فيما يخصّ الرسوم فهي مجانية، مجانية، فأنا هنا لا أحملك أيَّ جميل أو شيء آخر، وبالنسبة لثمن التذكرة فلترده لي متى استطعت..

يا ولدي لا تجعل رأسك ناشفًا، فتضيع فرصة إكمالك للتعليم، ولا تكن مثل ابنتي سحر.

- ما بها سحر يا أبو صالح، إن كان ذلك لا يزعجك، فأرجو أن تقول لي ما بها.

إنها عنيدة.. لم تُرد أن تدرس في تشيلي مثل سائر أخوتها وأخواتها، لأنها أصغر أبنائي وأكثرهم دلالًا، فقد وافقتُ تحت ضغطها وعلى الرغم من معارضة والدتها على أن تدرس في أمريكا، هل تعلم يا عماد أنك فعلًا تستطيع مساعدتي إن تمكنتَ من إقناع سحر بالعودة لتشيلي بعد دراستها، بالله عليك يا ولدي حاول معها، فأنت من سألتَني إن كان هناك ما يمكنك أن تساعدني به، وأنا أقول لك: إن أحضرتَ سحر معك إلى تشيلي.. سوف أكون أسعد الناس، وسوف يهنأ بال أمها.

سحر كانت قد علمت بما فعله والدها لي، فهي من أخبرته بموضوع طردي من الجامعة، وأظن أنها هي من طلبت منه تقديم المساعدة لي، اتصلتُ بها وطلبتُ ملاقاتها في أحد المقاهي التي تقع بطريقي لمكتب الطيران،

لأنني كنتُ على عجلة من أمري، وأردتُ الحصول على تذكرة السفر لكي أسافر على الفور إلى تشيلي.

حَضَرت سحر تحمل معها ابتسامتها الجميلة، جلست وعلى الفور قالت: إذاً.. سوف تسافر إلى تشيلي، مبروك، وأرجو منك أن تعذرني لأنني السبب في ما حدث معك.

قلتُ لها: لا لن أسافر، أعتقد أن والدك قد أخبرك أنه قدم لي المساعدة، لكنني رفضتها وشكرته عليها.

- لماذا بالله عليك ترفض السفر إلى تشيلي، وتُضيِّع عليك فرصة إكمالك للتعليم هناك؟ لقد رأيتُ ملفَ علاماتك خلال العامين الماضيين، وملفَ علامات دراستك الثانوية، أنت متفوق ومجتهد، فلا تضيع الفرصة من يدك، أرجوك.

قلت: لكنني لا أعرف أحدًا في تشيلي، ولا أتحدث اللغة الإسبانية، وأخشى أن أقع بالمشاكل هناك أيضًا، لكن إن استطعت أن أصطحب معي مشاكل من هنا، سوف تكون تلك المشاكل هي أيضًا الحلول.

صمتت قليلا، وقالت:

أتقصدني أنا؟ أتقصد أنك تريد اصطحابي معك إلى تشيلي؟

نعم، أنتِ الداء وأنتِ الدواء، سافري معي لتكملي دراستك هناك، ولتكوني فراشتي الحامية.

قالت: وكيف لفراشة أن تحميك أنت؟ فأنت طويل عريض وقوي، أما الفراشة فأضعف مما تتصور.

- أنتِ سافري معي، سافري وإلا سأعود إلى بلادي، بالمناسبة أنا أمتلك تذكرتي سفر إحداها للأردن، ومن هناك لفلسطين، والثانية لجنوب أمريكا.. إلى تشيلي، قرري أنتِ لكي أنفِّذَ أنا.

كنتُ قد وقفت على قدمي مودعًا إياها ومتوجهًا إلى باب المقهى، لَحقَت بي، وقفت أمامي وطبعت قبلة على وجنتي، وتأبطت ذراعي بقوة قائلةً: حسنًا،

ما دمتُ أنا التي سوف تقرر مصيرك، فيجب أولًا أن تقوم بالشيء الذي يثير جنون النساء أكثر من أي أمر آخر.

مشت هي.. ومشيتُ أنا بحركة لا إرادية معها، تاركا لها حرية توجيهي كيفما تريد.

بتلك القبلة التي أول ما طبعت على وجنتي أظن أنها حولتني من الأمير الضفدع إلى الأمير الأبله، فلقد كنتُ وعلى الرغم من سرعة القبلة وعفويتها ملويَّ الإرادة، حائرًا تائهًا حالمًا أيضًا.

أظن أنّ سحر قد فسَرت كلامي على أنه إشارةٌ مني للإعجاب بها أو حتى حبّي لها، لكنّ الحقيقة أنني كنت أحاول مساعدة والدها ليس أكثر، فأبتَسِمْ لابتسامتها نعم، ولكنني ما زلت بعيدًا عن مشاعر الحبّ، بعيد لدرجة أني نسيتُ أنّ هناك حبًا أصلًا، فكل ما أعرفه عن الحبّ هو حبّ أمي وحنانها وعطفها عليَّ عندما اتُّهمتُ بالبَلَه، وابتعد عني الجميع.

هل الحبُّ هو ما تكنينه لي يا سحر؟ أم أنه رد جميل؟!

مشينا سويًا قليلًا، وإذ بها تقف أمام أحد محلات بيع الملابس، فأدخلتني هناك.

أولًا، عليك التوقف عن إغلاق آخر زر في قميصك، لأنّ هذا يجعل مظهرك يعود إلى أيام الأبيض والأسود، ونحن الآن قد أصبحنا بعالم أي فون وأندرويد. ولذلك يجب عليك أن تغير منظرك وملابسك، وقصة شعرك، وحذاءك، وكل شيء.

فأنا أعشق التسوق، فهو معشوقي ومعشوق كل النساء.

عماد، أنت جميل جدًا، ولكن طريقة لبسك تجعل منك شخصًا ساذجًا.

لقد قالت ساذجًا.. الحمد لله أنها لم تقل أبلهًا.

لقد صدَّقتُ أيضًا، لطالما قال لي ماركو وديفيد وكيم أنه يجب عليَّ تغيير طريقة لبسي لكي أصبح كما يقولون.. على الموضة، حتى إنهم كانوا دائما ينتقدون طريقة تسريحي لشعري معتبرينها قد ولى عصرها منذ زمن.

يبدو أن سقطتي لم تكن على حجر يدمي رأسي هذه المرة، ولكن سقطتي أدمت قلبي وجعلته ينبض بسرعة، فلقد سقطت على وردة، طيبة المنظر والرائحة أيضًا.

بدأنا نتسوق.. فصرفتُ كل ما معي من مال على الملابس الجديدة والأحذية المتنوعة..

أعددتُ حقائبي وودَّعتُ أصدقائي وتوجهت بصحبة سحر إلى المطار لنبدأ رحلتنا إلى تشيلي.

هناك بالمطار، كنتُ قبل عامين قد تركت أفكاري المسبقة عن الولايات المتحدة الأمريكية، فبحثت عن تلك الأفكار في أروقة المطار ووجدتها تنتظرني، وقد جمعت حولها بعض الأفكار الأكثر عمقًا والأوضح رأيًا.

قلّبتُ تلك الأفكار قليلًا وأدخلتها إلى رأسي لكي تأخذ مكانها السابق، هناك وجدتُ أفكاراً وأحداثًا جديدة، فسرعان ما تعرفتُ عليها، فلقد وجدتُ أفكاري القديمة، كوهين ووالده والسطوة الصهيونية على منابر التعليم في أمريكا، حتى العِلْم لم يسلم منهم، فهم عبر التبرعات المالية للجامعات هناك، أصبحوا مموّلين لها بشكل يمكّنُهم من التّدخل بسياساتها التعليمية والأكاديمية.

لقد أدركتُ أن جورج بوش الذي كذب على العالم كله، عندما قال إن لدى العراق أسلحة نووية، فدخلَ العراقَ غازيًا مدمرًا له ولحضارته، لم يكتفِ بتلك الكذبة، بل كذب على الله أيضًا عندما قال أنه موكل من قبل الله لغزو العراق ولخوض حربه الصليبية المقدسة.

ما هي إلا أعوام قليلة حتى كشفتُ كل أكاذيب أمريكا، وأكاذيب توني بلير من خلفها، وأكاذيب الإعلام الصهيوني الذي روَّج ودعم تلك الأكاذيب.

وداعًا غير مأسوف عليكِ، وداعًا يا أمريكا، ومرحبًا بك تشيلي، ومرحبًا بي ضيفًا عندكم وعند سحر..

سحر.. نعم إنها تجلس بجواري صامتة، لا أدري هل ندمت لأنها عادت إلى تشيلي، أم أنها نادمة على جلوسها بجواري، أم أنها تنتظر مني أن أبدأ الكلام أولًا.

ماذا أقول، صحيح أنّ ملابسي الجديدة وتسريحة شعري الجميلة أعطتني ثقة بالنفس، إلا أنّ هذه الثقة لا تجعلني أقول كلمة مثل: أنا معجب بك مثلًا، أو كلمة أقوى مثل: أنا أحبك.

معجبًا قد أكون، أما محبًا فلا أعلم حقًا، ما زال تأثير القبلة على وجنتي منذ ساعات لم يَزُل، ولا أظنه سوف يزول قريبًا.

من أنتَ.. قل لي يا عماد، احكِ لي عن نفسك، أريد معرفة أدقّ التفاصيل عن حياتك، أرجوك قل، هذا ما قالته بعد صمتها.

حكيت لها عن نفسي وعن قصتي التي لم يكن بها الكثير من التشويق، ولا الكثير من الأحداث.

فباستثناء حمار القرية وحمار أمريكا كوهين، لا يوجد ما يُحكى أو يُقال، وما إن انتهيت وقبل أن تبدي رأيها، قلتُ على الفور: الآن دورك، احكِ لي حكايتك يا سحر.

وكأنها تعلم أنني سوف أطلب منها ذلك، فلم تتوقف ولو برهة للتفكير، بل قالت: أنا سحر أصغر ستّ أخوة، ولا تعجب من ذلك، والدي وُلد وحيدًا، وأراد أن يكون له أبناء كثر يعوضونه عن نقص الأخوة والأخوات.

أخواي درسا علوم الاقتصاد والتجارة، وهما يعملان مع والدي بالمصرف المالي الذي يملك والدي قسمًا كبيرا من أسهمه. أما أختي دارين فهي طبيبة. وبتول مهندسة، أما آلاء التي تكبرني بعام واحد وهي بنفس عمرك، فهي تدرس الآن بالجامعة أدب إنجليزي.

وأنا السادسة والأصغر عمرًا، والأجمل والأكثر دلالًا.. سحر، جئتُ إلى أمريكا لكي أبتعد عنهم وأفرَ منهم، ولكي أدرس المحاماة، وأنا بعامي الأول وأنت أنهيت عامك الثاني، وسوف تدخل عامك الثالث.

أكمَلَتْ وكأنها تحدث نفسها وتردُّ عليها، وكأنني غير موجود، وقالت: لقد أمضيت نصف عامي الأول في أمريكا بتعلم اللغة الإنجليزية، وما هي إلا شهور قضيتها بالفصل الأول بالسنة الأولى في كلية الحقوق، حتى حدث ما حدث، وها أنا أعود معك إلى تشيلي، هل ترى قصتي أكثر مللًا من قصتك؟ فأنا من ذوات الملاعق الذهبية كما يقال، حاولتُ أن أبتعد عن تلك الملعقة، لكنني مجبرةً عُدتُّ، فكم كنت أود لو أنني أحيا بعيدًا عن تشيلي لأعيش المغامرة، ولأتعلم كيف أعتمد على نفسي وأثبت ذاتي، فأنا لم أقصد تحدي والدي ووالدتي، كل ما أردته أن أحلّق ولو قليلًا وحدي.

فأخواي الكبيران هما نسخة طبق الأصل عن والدي، وأختاي الكبيرة مهندسة والأكبر منها طبيبة، والثالثة أديبة، أما أنا فأردت أن أكون محامية حقوقيّة أصارع في أروقة المحاكم لأنصر المظلوم، هل تعلم أنه عندما رأيتني يوم المشاجرة كنتُ أحضُرُ محاضرة لنصرة القضية الفلسطينية، ولقد تفاعلت مع تلك المحاضرة كثيرًا، لكنني شعرتُ أن يداي مكبلتان، فلا شيء أستطيع فعله سوى الاستماع لما يُقال، أو المشاركة في القول إن أمكنني ذلك، فأمريكا تمنع أيَ نشاط وتلاحق النشطاء وتلصق بهم التهم، بادعاء أننا ندعم الإرهاب.

هل تعلم أنّ كيان الصهاينة يحتلّ المرتبة الخامسة والعشرين عالميًا على مستوى الفساد، أي أنه في رأس قائمة الدول الأكثر فسادًا على مستوى العالم، في حين أنّ دولة كانت تُحكم من قبل مجنون مختلٍّ عقليا اسمه معمر القذافي الذي يحكم ليبيا، على الرغم من جنونه.. إلا أنّ ليبيا تحتل المرتبة المئة وتسعاً وتسعين عالميا في مقياس الفساد، لا أحد يتحدث عن فساد الصهاينة المالي في أمريكا، لكنهم لا يكفون عن الحديث عن فساد الدول العربية.

أسهبت سحر طويلًا في هذا الحديث، مما جعلني أشرد بفكري قليلا..

هي تهرب من ملعقتها الذهبية لكي تحقق ذاتها، ولكي تناصر قضايا المستضعفين المظلومين، وأنا أهرب من عتهي الذي ألصقَ بي ظلمًا وبهتانًا.

لكي أحقق ذات الأهداف، عندما قالت إنها جميلة مدللة،استغبيتها واعتبرتها مغرورة، ولكن سرعان ما أدركتُ أنها لم تكن تعني المعنى الذي فهمته أنا.

سحر تملك عقلا متنورًا وهدفًا نبيلًا تسعى لتحقيقه، إنها عميقة التفكير والتحليل، صحيح أنها جعلتني أرتدي ملابس حديثة وجميلة، إلا أنها لا تزال ترتدي ملابس أقرب ما يكون للزي الرسمي لطالبات المدارس الخاصة، فهي غير مبتذلة في لبسها أو مكياجها أبدًا، تتحدث بهدوء وموضوعية.

آهٍ منك يا قلبي، يبدو أنكَ سوف تميل نحوها لتقطن في مطبّ الحبّ الذي لا يقدر على مجابهته أحد، فالحبّ شرٌ لا بدَّ منه، فهو داء.. حُلوُهُ دواء، ودواء.. مرُّهُ داء.

عاودتُ الانتباه لما كانت تقوله سحر، وإذ بها تقول: هل تعلم أن أمي تتحدث اللهجة الفلاحية مثلك تمامًا؟ فأمي تصرُّ على أن تحادثنا بتلك اللهجة الفلسطينية، رغبةً منها بأن نكتسب مثلها تلك اللهجة.

سوف تستمتع بالحديث معك، فأنت تشبهها بهدوئك ولهجتك..

صحيح.. لماذا تملك بشرة بيضاء كالثلج يا عماد، ولماذا عيونك عسليتان أو لا أدري بنيتان فاتحتان؟ وكيف شعرك هذا؟ من أين لك بهذه الجينات؟

قل لي.. وقل لي أيضًا هل لك حبيبة أو خطيبة مثلًا؟

قلت: لا أعلم من أين لي بتلك الجينات التي أنعم الله بها عليَّ، فجعلني أبيضَ جميلًا، جميلًا..

نعم أنا جميل.. لكني غير مدلَّل..

فَهِمَت أنني أمازحها فتبسَّمَت..

وأكملتُ: أما بالنسبة للحبيبة أو الخطيبة فلا يوجد عندي لا حبيبة ولا خطيبة، والأهم أنه لا توجد لدي دراية بمثل تلك الأمور نهائيًا، ولكنني أظنّ أنّ جهلي بتلك الأمور قد يتغير، وخاصة بعد أن فككتُ زرَّ قميصي العلوي، وأصبحتُ أرتدي ملابس مريحة نوعًا ما، أعتقد أنني في طريقي لأقع بالحبّ.

أو أن الحبّ سوف يوقع لي زهرة جميلة لتحمل معها ألوانًا جديدة، وروائح عطرية تجعلني أستمتع بحواسي التي كنتُ أعتقد أنني لا أملكها.

نظرتُ إليها، فرَّت عيناها من عيني..

أدركتُ أن سهم كيوبيد قد أصابها كما أصابني..

بعد برهة من الصمت، قلت: حدثيني عن تشيلي قليلًا، لعلي أتعرف عليها هي الأخرى فأقع في حبها.

أدركَت سحر أنني قد وقعتُ في حبّها من خلال حديثها معي عن نفسها قبل قليل، ففرَّت من هذا كله عبر أسفها بالحديث عن تشيلي ردًا على سؤالي.

قالت: أولًا .. هناك نحو أربعمئة ألف فلسطيني يعيشون في تشيلي، وهناك نادٍ رياضي اسمه نادي فلسطين الرياضي، وهو أحد أكبر الأندية الرياضية على مستوى تشيلي، وهذا النادي قائم على دعم أبناء الجالية الفلسطينية هناك.

الشعب التشيلي شعب طيب ومسالم، ولقد تقبَّل الشعبُ التشيلي المهاجرين والمغتربين إلى بلاده بصدر رحب، والأهم من تقبُّلِهم، أنهم مكنوهم من الاندماج في مجتمعهم بشكل هادئ ومتسامح، لن ترى هناك عنصرية ضدّ الملونين أبدًا، وضدّك أنت أيها الأبيض خاصة.

إذا كنت من الجادين، فسوف تحصل على عمل ودخل مادي جيد، يمكنك من الدراسة والحياة.

الحياة هناك جميلة جدًا، فتشيلي بلد جميل، ومدنه متحضرة أيضًا.

فجأة كأنها تذكرت شيئًا مهمًا.

قالت: صحيح! تستطيع أن تعمل بتعليم اللغة الإنجليزية، فلكنتك تساعد على ذلك، وتستطيع تعليم اللغة العربية أيضًا.

ولكن أولًا عليك تعلم اللغة الإسبانية لتستطيع الدراسة بالجامعة والاندماج بالمجتمع.

قلتُ: أولًا سوف أبحث عن عمل، فما زال أمامي شهرين قبل بدء الدراسة بالجامعة، ثم بعد العمل سوف أدرس اللغة الإسبانية.

فتحت جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بها، وبدأت بالدخول على بعض المواقع في تشيلي للبحث لي عن عمل، كل تلك المواقع باللغة الإسبانية، فلم أستطع مشاركتها البحث.

أما أنا ففتحت كمبيوتري وكتبتُ مقالًا عما حدث معي في أمريكا، وأرسلتُهُ إلى إحدى الصحف في فلسطين، فقد كنت أراسل تلك الصحيفة منذ نحو عام، وكانت تنشر ما أكتبه.

كانت كتاباتي تدور في مجملها حول الصراع العربي الصهيوني، وعن الانحياز الأمريكي الأعمى للجانب الصهيوني في هذا الصراع.

أعلن قائد الطائرة عن اقترابنا من المطار، وطلب من الركاب الاستعداد للهبوط عبر ربط الأحزمة وإغلاق الأجهزة الإلكترونية.

أغلقتُ جهازي وأغلقتْ هي أيضًا، ورَبَطَ كلانا أحزمة المقعد استعدادًا للهبوط في المطار.

في تلك الثواني والدقائق القليلة التي سبقت هبوط الطائرة، تملّكني شعورٌ من الخوف والرهبة والتوهان، فلقد اختلطت مشاعر الغربة ثم الغربة من جديد، مع مشاعر تجديد مظهر ملابسي، مع مشاعر سهم كيوبيد. أُحِسُّ لو أنني نظرت إلى المرآة الآن لوجدت صورة وجه شاب أبله متعجب مستغرب.

فقرة (٥)

قناع الوجه الإنجليزي

حطت الطائرة في مطار العاصمة التشيلية هناك، وجدتُ الدفء في معاملة موظفي المطار، فقد كانوا ودودين بشكل لافت على عكس ذلك المطار في أمريكا.

ما إن خُتم على جواز سفري ختم الدخول، حتى وجدتُ سحر بانتظاري، فحملتُ حقيبتي الوحيدة على كتفي، ودفعتُ العربة التي تحوي حقائب سحر، لم يكن هناك من ينتظرنا في المطار، فلم تخبر سحر والديها بقدومها.

انطلق سائق التاكسي مجتازًا شوارع يملؤها الناس وتدبُّ بها الحياة، أَلِفْتُها ولم أشعر بالغربة.

أجرت سحر عدّة مكالمات بهاتفها النقال، وطبعًا لم أفهم مما كانت تقوله سوى كلمة سي، ومعناها بالعربية نعم.

توقف التاكسي أمام منزل والد سحر، هناك كانت أم سحر، أم صالح إذا صح القول كانت بانتظارنا.

عانقت الأم ابنتها.. وقفتُ بعيدًا حالمًا بأن أعود إلى بيتي لتعانقني أمي، وقبل أن أفيق من حلمي حضنتني أم صالح وقالت: أهلًا بالبطل، أهلًا بالبطل.

كرَّرت تلك الكلمة أكثر وأكثر، وهي ترحب بي، دخلتُ إلى البيت إن صح لي تسميته بهذا الاسم، فهو عبارة عن قصر متوسط الحجم تحيطه مزرعة كبيرة وجميلة.

استأذنتُ أم صالح لكي أتجول بالمزرعة ليس حبًا في التجول، لكن رغبة مني بإفساح المجال للأم وابنتها من أجل تبادل الحديث.

أعجبتني أرجوحة في أحد أطراف المزرعة، فاستلقيتُ عليها، وإذ بي أغطُّ في نوم عميق، يبدو أنه نوم التَّعبان الذي ارتاحَ وشعر بالأمان، واستسلم لهدوء المكان، ولأن الوقت كان قبل مغيب الشمس فلقد استسلمت غير مقاوم.

استيقظتُ على زقزقة الطيور المغردة، تلك الطيور التي سمعت صوتها. ولكني رأيتُ بدلًا منها فتاة مكتملة الجمال، بل فائقة الجمال تجري وتمارس الرياضة، ليس بعيدًا عن الأرجوحة، يبدو أنني قد نمتُ طول الليل، هذا ما قلتُهُ لنفسي وأنا أقف على قدمي، فإذا بتلك الفتاة تهرول نحوي، تهرول وكأنها قمر يسارع الخطى ليصبح بدرًا ساطع النور، أجمل من البدر كانت، أما أنا فمرتبك. لا أدري ماذا أقول أو أفعل.

قالت: أنت عماد صحيح؟

قلت: نعم، أنا عمادالدين، وقد..

قالت: أعلم، لقد حضرتَ يوم أمس مع سحر، ولكن أين كنت، لقد بَحَثَت عنك سحر وأمي طويلًا فَظَنَّتا أنك تركتَ البيت لزيارة أو رؤية أحد ما، أين كنت؟

قلت: أنا هنا على الأرجوحة، لقد كنت تعبًا من رحلة السفر، وقد استسلمت للنوم ليس إلا، فأنا لا أعرفُ أحدًا في بلدكم هذا، سوى عمي أبو صالح وسحر. وأنت أيتها البدر من تكونين بالله عليك، إن كنت قمرًا تحول إلى بدر في حلمي فلا توقظيني من حلمي.

لا أدري لماذا قلت ذلك، وكيف أصلًا تجرأت على قول مثل هذا الكلام..

أَغَبِيٌّ أنا أم مني الغباء قد استفاق..!!

قالت بعد صمت، وبعد أن رتبت قليلًا هندامها ورفعت شعرها عن عينيها: أنا آلاء، أخت سحر وأكبر منها بعام.

قلت: أنت آلاء البدر في السماء إذاً، طالبة الأدب الإنجليزي، لقد حدثتني عنك سحر قليلًا، لكنها لم تقل إنك..

قالت: إنني ماذا؟

قلت: لا عليك، الأيام قادمة وسوف نتحدث.. وهنا تحولتُ من الحديث باللغة العربية إلى الحديث باللغة الإنجليزية.

اصطحبتني إلى باب خلفي، ودخلنا منه إلى المطبخ، وهناك سألتني ماذا أريد أن أشرب؟

قلت: حليب، ولا شيء غير الحليب.

صَبَّت لي الحليب وصَبَّت لنفسها كأس عصير برتقال..

وقالت بعد أن شَرِبَت قليلًا منه: اعذرني قليلًا، سوف أذهب لكي أبدل ملابسي كي لا أتأخر على جامعتي، فأنا أدرس في كورس صيفي حتى أتمكن من إنهاء دراستي الجامعية مبكرًا.

سوف أوقظ سحر لكي تنزل عندك، وداعًا.

شربتُ الحليب، فطال نزول سحر، فصنعتُ شطيرة وبدأت بأكلها، لم تنزل سحر، بل أم صالح هي التي نزلت، كانت قلقة ملهوفة جدًا للاطمئنان عليَّ، فحاولت طمأنتها على صحتي، وقلت لها: الحمد لله، إنّ الجو كان معتدلًا ولم أبرد، فلا تقلقي يا أم صالح.

قالت: حسنًا، بما أنك لم تتعشَّ البارحة، سوف أعدُّ لك إفطارًا شهيًا، إفطارًا فلسطينيًا أصليًا، اترك من يدك التصبيرة وهيئ معدتك لاستقبال الفول..

سحر سوف تنزل حالًا، أما أبو صالح فهو مسافر خارج المدينة لأداء أعماله.

أعدَّت أم صالح الفول والبيض المقلي على شكل عيون، وعلى شكل عجة، وصنعت قلاية مليئة بالبندورة، ووضعت اللبنة مع الزيت والزعتر، وقطّعت الخيار، وقبل أن أكمل مشاهدة ما أعدَّته أيضًا، رأيت فتاة تشبه سحر، لكن عمرها أكبر بكثير، قالت وهي تلتقط قطعة من الخيار: مرحبًا، أنا بتول.

هززت رأسي مرحبًا، وقلت: أنا عماد.

قالت فتاة أخرى: وأنا دارين.

قلت: إذاً أنت الطبيبة وبتول المهندسة، أما أنا فمحام على درب الدراسة.

حاولت أم صالح جعل الفتاتين تتناولان الإفطار، لكن دون جدوى، شربت كل واحدة منهما بعض العصير وانطلقتا إلى عملهما.

قلت في نفسي هنَّ كبيرتان بما يكفي لأن تكونا قد تزوجتا منذ أعوام، لكن لماذا، لمَ، وكيف إذًا، يبدو أنني أجهل بعض.. بل أجهل الكثير من أمور هذه العائلة.

قاطعت أم صالح تفكيري بتقديمها كوبًا من الشاي المليء بأوراق النعناع قائلة: اشرب يا ولدي وتناول إفطارك معي، فأنا ومنذ أعوام أفطر وحيدة، وما زاد وحدتي هو سفر سحر منذ عام، فقد كانت سحر آخر العنقود هي من تؤنس وحدتي وتفتح شهيتي.

ألقيتُ بقطعة من الخيار.. وقلت لقطعة الخبز قبل أن تصل لصحن الفول، انتظريني فأنا قادم..

ضحكت أم صالح، وقالت أيوا هيك، اعتبر نفسك في بيتك يا ولدي، بالله عليك اعتبرني مثل والدتك تمامًا وخذ راحتك.

ما أن أنهت جملتها حتى طلّت سحر، وجلست أمامي فحيَّيتُها بإشارة من رأسي، حيث كان فمي مليئًا، وعندما رفعتُ كأس الشاي محاولًا بلع طعامي بمساعدته، ضربتني سحر من تحت الطاولة على قدمي، وقالت بدر..! أيوه بدر!!

والله ما أنت قليل يا عماد، بدر والله يا عمي.. بدر..

لم تفهم أم صالح ماذا كانت تعني سحر بقولها لكلمة بدر، ولكي لا أتيح المجال لسحر لتتمادى أكثر، قلت: نعم والله ما شاء الله عليها، أحلى من البدر، مش هيك يا أم صالح؟

قالت أم صالح: من تقصد؟ قلت: آلاء

لقد رأيتها قبل قليل بالحديقة، وعندما سألتها عن اسمها قالت: آلاء. فقلت لها مجاملًا ومتقنِّعًا آلاء البدر، أنت أم البدر في آلائه أنت؟ الله يخليها إلك يا أم صالح ويحرسلك بناتك إن شاء الله.

زادت تلك الكلمات سحر غضبًا.. وغيرة أيضًا..

بعد تناول الإفطار، اصطحبتني أم صالح إلى بيت صغير مخصص للزوار يقع في أحد أركان المزرعة، ليس بعيدًا عن البيت الرئيس كثيرًا، هناك وجدتُ حقيبتي قد جلست وحيدة تنتظرني.

أرتني أم صالح ذلك البيت المكون من غرفة كبيرة للنوم ملحق بها حمام وصالة للجلوس، وقالت: سوف أتركك الآن لكي تستحم بعد نومك بالحديقة، وبعد ذلك تعال إلى بيتنا لنشرب القهوة معًا.

فعلًا.. كنت بحاجة ماسة لأخذ حمامٍ دافئ، وفعلتُ ذلك سريعًا وتوجهتُ إلى منزل العائلة.

قبل أن أصل إلى المنزل، كنت أصيح يا ساتر.. يا أهل الله.. يا ساتر.. يا أم صالح.. يا ساتر.

خرجت أم صالح من المطبخ وهي مبتسمة وتضحك.

رَدَّدَتْ يا ساتر.. يا الله.. يا أهل الله

أتعلم يا عماد أنني لم أسمع مثل هذه الكلمات منذ أعوام طويلة، منذ وفاة والدي، فهو الوحيد الذي عندما أتى إلى تشيلي لزيارتنا قبل أن يتوفاه الله، كان ما إن يخرج من البيت إلى الحديقة حتى نسمعه يردد تلك الجمل قبل عودته للبيت مرة أخرى.

قلت: رحم الله والدك وكتب له الجنة، أما عاداتنا القروية فلم تمت يا أم صالح، فنحن ما زلنا في القرية نردد تلك الجمل بشكل عادي ويومي.

قالت: اجلس لكي أصبّ لك الشاي إن أردتَّ، لأنني علمت من سحر أنك لا تحبّ القهوة، أما أنا فسوف أصبّ لنفسي فنجانًا من القهوة، اجلس يا عماد، وحدثني أولًا عن قريتك، وثانيًا عن نفسك.

قلت: أنا اسمي عماد، وقصصت عليها قصتي منذ يوم الحمار حتى يوم كوهين، وصولًا لأرجوحة الحديقة، ضحكت وقالت: أنت يا ولدي بسيط طيّب، واللي على لسانك بخرج مباشرة من قلبك.

فاحذر يا ولدي، وكن كتومًا حتى لا يستهين بك أحد.

قلت: أتمنى أن أكون كتومًا، ولكنني يا أم صالح إذا ما ارتحت لأحد من الناس، فأنا أتحدث معه وكأنني أتحدث مع أمي.

هل تعلمين يا أم صالح أنني طوال حياتي لم أقل قصتي هذه إلا لك أنت اليوم، ولسحر ابنتك بالأمس؟ فأنا عادة أكون هادئًا صامتًا.

ما إن أكملنا حديثنا حتى نزلت سحر، وهي ترتدي أجمل ملابسها وأكثرها أناقة على الإطلاق.

قالت سحر: هل أنت جاهز؟ لقد حددتُ لك موعدًا مع إحدى معلمات اللغة العربية، لعلك تعلّم عندها في معهد اللغة العربية، وتتعلم هناك اللغة الإسبانية، وداعًا ماما. هيا يا عماد.

ودعتُ أم صالح وحملتُ حقيبة صغيرة على كتفي كنت قد وضعت بداخلها كمبيوتري المحمول، وانطلقت مع سحر.

توجهت سحر إلى موقف سيارات المنزل، من هناك ركبنا بسيارتها المتوقفة، سيارة جميلة جدًا وناعمة جدًا من نوع «فولكس فاجن- الخنفساء»، وما إن شغّلت السيارة حتى علا صوت المسجل بأغنية فيروز، فيروز الجميلة الصافية، غرّدت للوطن وقالت أجمل ما يمكن أن يقال.

توقفت سيارة سحر عند المعهد، وهناك نزلنا، تعرفت على مديرة المعهد، واتفقت معها بعد أن قامت بإجراء اختبار لي في كلٍّ من اللغة الإنجليزية واللغة العربية، على أن أدرّس ستة أيام في الأسبوع، وأن تكون هذه الدروس في ساعات ما بعد العصر، لأن تلامذتها هم من طلبة الجامعات أو الموظفين الذين يعملون صباحًا ويريدون تعلم اللغات عصرًا، كان هذا الجزء تحديدًا هو ما جعلني أوافق على أي عرض مالي سوف تعرضه عليَّ، أولًا لأن العمل دائم، ثانيًا لن أترك دراستي، وثالثًا لأنني سوف أتمكن من دراسة اللغة الإسبانية في نفس المعهد، وذلك ما بين الدروس التي سوف أعطيها أنا لطلابي وبين وقت الفراغ.

شكرتُ المديرة.. وودعناها، وانطلقتُ مع سحر إلى إحدى المقاهي القريبة من المعهد.

ما إن جلسنا حتى قالت سحر: هل تغازل الفتيات هكذا بلا مقدمات؟؟

قلت: عن أي فتاة تتحدثين؟ عن مديرة المعهد أم من؟

قالت: أتحدث عن البدر.. آلاء.. بدر الصباح

قلت: اسمعي يا سحر، أولًا أنا لم أغازل آلاء، ولكنني قلت تلك الكلمات تعبيرًا عن جمالها ومجاملة لها، ليس إلا، فأنا عندما أرى بطيخة شكلها جميل أقول هذه البطيخة جميلة، وهذا ما حصل مع آلاء، وبالمناسبة تلك كانت أول مرة بحياتي أقول مثل هذا الكلام لفتاة، ثم يا أستاذة سحر، أنا يوم أمس تجرأت وأبديت إعجابي بك، ولمّحت مرتين لكنك لم تتجاوبي معي أو مع كلماتي فتركتني حائرًا.

أرجو منك بما أنك أبديت نوعًا من الغيرة والانتقاد لتصرفاتي، أن تقولي لي ما هي حقيقة مشاعرك نحوي؟

قالت: أنت طيب وشهم، لكنني صدقًا لا أعلم حقيقة مشاعري نحوك، قد أكون قد غِرتُ، ولكن غيرتي لا تعني حبّي لك أو.. لا أدري يا عماد، فأنا عرفتك في ظروف صعبة، ولم تُتَح لنا الفرصة للتحدث بشكل مطول سوى بالطائرة.

هناك عندما قلت لي قصتك، لا أدري ما حلّ بي، أعتقد أنّ انبهاري بك بسبب ضربك لكوهين ومن معه قد تلاشى، فأنت.. لا أدري..

قلت: أنا طيبٌ زيادة عن اللزوم، وأبلَه، واللي في قلبي على لساني، قوليها، هل تعلمين يا سحر أن والدتك قالت لي اليوم: احذر يا عماد من طيبتك، وكن كتومًا حتى لا يستضعفك ويستهين بك من لا يعرفك.

إذًا يا سحر.. عندما ركبنا الطائرة كنت تظنين أنك تجلسين بجوار فارس همام، وإذا الفارس الهمام ليس سوى أبله بسيط.

صمتُّ بعد تلك الجملة وحملتُ حقيبتي وقلت لها: إنني أريد أن أتمشى وحدي لرؤية معالم العاصمة.

لم أترك لها مجالًا للرد، فقد كنت جامد الملامح مصمّمًا.

مشيتُ عدّة ساعات، فإذا بي أقف أمام محل لبيع الأجهزة الإلكترونية، فدخلتُ وعرضتُ على صاحب المحل شراء جهاز كمبيوتري المحمول الذي أملكه، ففحص الجهاز وعرض علي سعرًا مناسبًا، فقبلت.

أخذتُ المال وتوجهت إلى فندق صغير يحتوي على بضع غرف ليس إلا، فدفعتُ أجرة شهرٍ كاملٍ بعد أن حصلت على خصم مقابل الدفع مقدمًا.

عدتُ إلى منزل أبي صالح راكبًا سيارة أجرة، فدققت الجرس فجاءت الخادمة لتفتح الباب، توجهت مباشرة نحو حجرتي في بيت الضيافة وأخذتُ من هناك حقيبتي، وتوجهتُ حاملًا إياها إلى الباب الخلفي الذي يؤدي إلى المطبخ، هناك بجوار الباب، وعلى كرسي، كانت أم صالح جالسة تشرب القهوة كما تركتها صباحًا، ولولا أنها كانت قد بدلت ملابسها الصباحية بأخرى لظننت أنها لم تترك الكرسي منذ الصباح.

مرحبًا أم صالح.. قلتُ

قالت: ألم أقل لك بأن تعود لتناول طعام الغداء، وها أنت تعود بعد أن حلّ المساء، أين كنتَ، لقد قلقتُ عليك يا ولدي، فأنت غريب بهذه البلاد؟

ما إن أكملت كلامها حتى كانت سحر وآلاء قد نزلتا من الأعلى، ووقفتا حول الطاولة مقابلي، فأنا كنتُ أيضًا واقفا حاملًا حقيبتي.

قلت: أم صالح، أشكركم على حسن الضيافة، وأرجو منك أن تسمحي لي بأن أغادر لأنني وجدتُ مسكنًا أقيم فيه، فأنا لا أحبّ أن أثقل على أحد، وأرجوك ألا تصعبي عليَّ الموضوع، وأن تسمحي لي بالمغادرة، فهناك سيارة تاكسي تنتظرني بالخارج لتوصلني لمكان إقامتي الجديد.

لم أترك لأم صالح مجالًا للكلام، فوجهتُ كلامي إلى سحر، وأنت يا أختي الصغيرة سحر شكرًا لك على مساعدتي بالحصول على عمل، شكرًا جدًا، وكذلك شكرًا لوقتك الذي أضعتِه معي، ولم أترك لسحر مجالًا للرد، فقلتُ موجهًا كلامي لآلاء: بالنسبة لك يا آلاء، عذرًا منك إن كنت قد أزعجتك بكلماتي صباحًا، وأرجو منك أن تسامحيني على ما قلته، فأنا مجرد معتوه، معتوه لا أكثر، لا أدري ماذا أقول.

مع السلامة يا والدتي العزيزة أم صالح، ووداعًا يا أختي الصغيرة سحر، وعذرًا مرة أخرى منك يا أستاذة آلاء.

توجهتُ نحو مخرج الحديقة وصولًا إلى سيارة التاكسي، وركبتها إلى فندقي المتواضع.

ما إن وصلتُ هناك حتى وضعتُ ملابسي في خزانة الملابس، وألقيتُ بنفسي على السرير.

لم أتمكن من النوم، فقد كانت الأفكار التي تدور برأسي أقوى مني، ولم تغادر رأسي سوى ساعات ما بعد منتصف الليل، فنمتُ نومًا طويلًا.

استيقظتُ وصلّيتُ الفجر، وعاودتُ النوم لساعات ما بعد الظهر، استحممتُ ولبست ملابسي، وتوجهتُ مشيًا على الأقدام لمعهد اللغات، فقد كان المعهد قريبًا جدًا من فندقي المتواضع.

تجولتُ بأرجاء المعهد محاولًا التَعرف على المعلمين والطلبة، فلم يكن قد حان موعد بدئي تقديم الدروس بعد، تناولت طعام الغداء بالمعهد.

بدأتُ عصرًا إعطاء دروس للطلبة والطالبات، غابت عني أفكار اليوم السابق، وانهمكتُ في إثبات جدارتي في تقديم الدروس لطلبتي.

في هذا اليوم، قررتُ ارتداء قناع الرجل الإنجليزي الصارم الجاد، ولقد ساعدتني على ذلك لكنتي الإنجليزية القوية، وشكلي الأوروبي، وألقيتُ خلفي عمادًا البسيط، لدرجة البلاهة كما يزعمون، وأصبحت عمادًا ذا معالم لاعب أوراق البوكر.

لم يستطع أحد بعد الآن فهْم تعابير وجهي، التي سوف تختفي خلف قناعي، مخفية معها مشاعري.

هذه هي المرة الأولى التي أرتدي بها قناعًا، ولكنني لا أظنها، سوف تكون الأخيرة.

أمضيتُ الأسبوع الأول في التدريس بالمعهد على هذا النحو، التعليم والتَعلم.. لا شيء غيرهما.

في نهاية الأسبوع، استدعتني السيدة «باتريسيا» مديرة المعهد إلى غرفتها، وهناك طلبت مني الجلوس، أثنَت على عملي كثيرًا،

وقدَّمت لي مغلَّفًا به راتبي الأسبوعي حسب الاتفاق، شكرتُها وهممتُ بالمغادرة، إلا أنها طلبت مني التَّريث قليلًا لشرب العصير والتَّحدث.

بدأت السيدة باتريسيا حديثها قائلة:

أنت يا عماد غريب نوعًا ما، فأنت تحضر إلى المعهد قبل موعدك، وتغادر بعد موعدك، أنت لا تشرب الكحول ولا حتى القهوة، ولا تدخن، وأنا متأكدة ألا صديقة عندك، فأنت دائمًا ما تبقي جهازك النقال مغلقًا، لا تشغله إلا لكي تتصل أنت منه.

عماد، أنت تحيا بلا متعة، وتعيش حياة ملؤها الرتابة، إن بقيت على هذه الحال فإنه من المؤكد أنك سوف تنهار يومًا ما.

نظرتُ متأملًا السيدة باتريسيا متفحِّصًا إياها جيدًا، فوجدتُّ أمامي سيدة تقارب الستين عامًا من العمر، أنيقة بشكل جدّي، تلبس نظارات تزيدها وقارًا على وقارها، وترتدي أيقونة الصليب المقدس حول عنقها، وتمسك بيدها مسبحة خشبية في آخرها صليبٌ من العاج، تتحدث كأنها أمّ تحادث ابنها، محاولةً استدراجه بالكلام، لتعرف علّته لعلها تساعده على حلها.

السيدة باتريسيا هي فلسطينية، من مدينة بيت جالا بجوار بيت لحم، هاجرت وهي طفلة مع والديها إلى تشيلي، وهنا نشأت وترعرعت وتزوجت، ولها من الأولاد والبنات أربعة، كلّهم متزوجون هانئون بحياتهم، قامت بفتح معهد اللغة هذا بعد وفاة زوجها لِتُسلّي نفسها، وتكسر جليد الوحدة وتقهر الملل.

هذا ما كنت أعرفه عنها من خلال عملي في معهدها، وهذا ما تأكدت منه اليوم بعد حديثها معي.

ما إن انتهيت من تأملها، وقبل أن أجيب، قالت لي: صحيح أين سحر؟ أنا لم أرها منذ يوم حضورها معك أول مرة لتقدمك لي من أجل الحصول لك على عمل؟

قلت: لا أدري، فأنا أيضًا لم أرها منذ ذلك اليوم.

فقالت: مسكينة أم صالح والدة سحر، هل تعلم أن ابنتها الطبيبة دارين قد تطلقت بعد زواج دام عشرة أعوام أو أكثر، لأن حماتها الشمطاء كانت تعايرها بعدم الإنجاب! على الرغم من حبّ زوج دارين لها ، إلا أنّ دارين أصرت على الطلاق حفاظًا على كرامتها.

أما بتول فلم تتزوج، بل فسخت خطبتها لأن خطيبها كان مثل فلنتاين، يتنقل من فتاة لأخرى.

أما آلاء فنصيبها لم يأتِ بعد، على الرغم من جمالها الرائع، وسحر أيضًا لم يأتِ نصيبها.

هل تعلم أنني ظننتك صديق سحر أو حتى خطيبها؟

نظرتُ محدقًا بالسيدة باتريسيا، فأدركَت ما أقصده وقالت: نعم، ظننتك خطيبها أو ما شابه، لأنها عندما حدثتني وهي على متن الطائرة قبل وصولك معها، قالت لي صاحب الوظيفة شخص يهمها أمره جدًا جدًا، ولذلك حللت بنفسي، خاصة بعد أن رأيت سحر عندما قدمت معك ترتدي ثوبًا جميلًا جدًا على غير عادتها، فأنا أعرف سحر منذ أن كانت رضيعة، فهي لا ترتدي مثل هذا النوع من الملابس أبدًا.

هي جيفاريّةٌ بطبعها، مثل أنصار الثوري جيفارا، ترتدي الملابس البسيطة، والتي تكون أقرب إلى ملابس العسكر، على الرغم من أنها تعشق التسوق، لا أدري فالفتيات بمثل هذا العمر متقلبات.

مسكينة أم صالح ما أطيبها، وما أتعَسَ حظها في هذه الدنيا، فلنعد إليك أنت يا عماد، ما رأيك أن تأتي معي اليوم لتناول طعام العشاء، فسوف يحضر ابني ساري بعد قليل لنعود إلى المنزل معًا، فهل تأتي معنا لأريك أحفادي، فهم يقضون إجازتهم في منزلي.

شكرتها واستأذنتها وغادرت المعهد متوجها إلى غرفتي بالفندق.

ما إن استلقيتُ على السرير، حتى أدرتُ برأسي شريط محادثتي مع السيدة باتريسيا، أدرتُهُ عدة مرات، وقلبته أيضًا عدة مرات، وصلت بعد أن أنهكتُ من التفكير، إلى أن سحر مثل الفرس التي لم تجد من يروضها، فرس برّي تائه ضائع تحتاج إلى مروض فارس، قادر على التعامل معها، وإلا سوف تبقى تائهة ضائعة، لأنها لا تريد أن ترتبط بشاب فتفشل علاقتها معه.

وبما أنني لست فارسًا ولا مروض خيول برية، فمن الأفضل لي ولقلبي أن أبتعد عنها، فأنا لا أناسبها على الرغم من أنها تناسبني، فأنا أيضًا أحتاج لمن تبثُّ الروح في حياتي المملة، فأنا قد أصبحت مع مرّ السنين من عشاق الوحدة والانطواء، حتى تحول هذا العشق إلى نوع من أنواع العبادة.

مسكينة يا أم صالح، قلتها ولا أذكر بعدها إلا صوت منبه الساعة يرنّ معلنًا بدء يوم جديد.

اليوم الأحد.. وهو عطلة، لقد نسيت، فأنا عادة أضبط ساعة المنبه فور استيقاظي صباحًا، لتكون جاهزة لصباح اليوم التالي، واليوم هو الأحد، قلتها وكررتها بداخلي، ولكن ما الفائدة؟ فقد كنت قد اغتسلت ولبستُ ملابسي وخرجت من الغرفة عندما قابلتني صاحبة الفندق، وبعد أن تبادلنا التحيات قالت لي: هل تعمل يوم الأحد أيضًا يا أستاذ عماد؟

قلت: لا. قالت: إذا يبدو أنك نسيت أن اليوم هو الأحد إذًا، ضحكتُ وضحكتْ هي أيضًا.

لم أعد إلى غرفتي، فأمضيتُ يومي متجولًا في الشوارع محاولًا التعرف على المدينة ومعالمها.

عدتُ متسائلًا لكي أكتب مقالي الأسبوعي للصحيفة التي أتعامل معها في فلسطين.

عادةً.. كانت مقالاتي تتناول مواضيع تهتم بالقضية الفلسطينية، تلك القضية التي أصبحت مملة جدًا، إلا أنني منذ نحو عام بدأت أتجه للكتابة بالمواضيع التي تخصّ العدالة الاجتماعية وإنهاء حكم الفرد،

وهي أيضًا مواضيع أصبحت مملة، إلا أن بها دائمًا ما هو جديد.

بحثت عن جهازي الكمبيوتري، فتذكرت أنني قد بعته قبل أسبوع، فكتبتُ مقالتي على بعض الأوراق، وتناولت عشائي ونمتُ.

وما إن وصلتُ المعهد صباحًا، حتى توجهتُ نحو مكتب السيدة باتريسيا طالبا منها الإذن باستعمال جهازها الكمبيوتري لأرسل مقالتي، فوافقت على الفور، فأرسلتُ المقال وشكرتها متوجهًا إلى كافيتيريا المعهد لتناول بعض الطعام قبل الدرس.

بقيتُ على حالي هذا أسبوعًا آخر، لم يعكره سوى إزعاج معلمتين كانتا تعملان معي في نفس المعهد، فلقد كانت كل واحدة من تلك المعلمتين تحاول استمالتي نحوها، بشكل كان يحرجني كثيرًا، إلا أنني استطعت التَهرب منهما بعد أن شاهدتاني في اليوم الثالث لتلك المحاولات أرتدي خاتمين، أحدهما في يدي اليسرى يدل على زواجي، والآخر باليد اليمنى يدل على خطبتي، فما إن شاهدتا الخاتمين حتى ابتعدتا عني وتركتاني بحالي.

في نهاية هذا الأسبوع الثاني، توجهت إلى مكتب السيدة باتريسيا لقبض راتبي الأسبوعي، ما إن دخلتُ عليها بعد أن طرقتُ الباب حتى قالت: أهلًا، أهلًا، وتقول: ألا هواية عندك ولا عشق لديك؟ لقد كشفتُ سرَّك.

صمتُ قليلًا أفكر، هل علمت بحبّي لسحر، أم علمت بأنني حمار؟ أقصد سقطتُ عن حمار، وأنني أبله افتراءً لا حقيقة..

كعادتها كَسَرت صمتي وقالت: لقد نسيتَ على مكتبي مقالتك التي أرسلتها إلى الصحيفة في فلسطين، ولأنني فضولية بطبعي، فقد قرأتها، والأهم أنه بعد أن أعجبتني فتحتُ جهازي الكمبيوتري وعدت نحو العنوان الذي أرسلت إليه ملفاتك، ووجدته إحدى الصحف الفلسطينية هناك خلف البحار.

وها أنا منذ نحو أسبوع كامل وأنا أقرأ مقالاتك السابقة الموجودة على موقع الصحيفة، أنت يا عماد عاشق للكتابة، ولكن كيف تكون كاتبًا وأنت لا تدخن ولا تشرب القهوة، ألا تحتاج الكتابة للسهر وللمنبهات لكي تبقى نشيطًا يقظًا؟

أولا تحتاج للتدخين لكي تبعد عنك الهموم؟

قالت تلك الجملة وهي تشعل سيجارة، وأكملت بعد أن أخذت نفسًا عميقًا من السيجارة.

- إذن أنت خاطب للكتابة، ومتزوج من الحقوق والمحاماة.

هل تعلم يا عماد أنه عندما سألتني المعلمة «وسن» عن حالتك الاجتماعية قلت لها إنك متفرغ، وكذلك قلت للمعلمة «دينا»، ولكنّ كلتا المعلمتين قالتا لي إنني مخطئة، وأنك أصبحت ترتدي خاتمًا للزواج وآخر للخطبة، كدتُ أصدقهما لولا قراءتي لمقالتك هذه، ولمقالاتك السابقة.

عماد.. ألست قاسيًا بعض الشيء في نقدك للأمور التي تكتب عنها؟ ألا تخشى ممن تكتب عنهم؟

أنت صريح جدًا..

قلت: تقصدين أنني وقح جدًا..

ضحكت السيدة باتريسيا، وقالت لي: لم لا تكتب تلك المقالات بالعربية كما تفعل عادةً وتترجمها إلى اللغة الإسبانية؟ ألا تعلم أن هناك صحفيين فلسطينيين كثر في تشيلي؟ طبعًا لا تعلم، وكيف تعلم وأنت من المعهد للفندق ومن الفندق للمعهد؟

اسمع يا عماد، لقد دعوتُ اليوم لمنزلي عددًا من أولئك الشباب الكتّاب لتناول العشاء، وأنت أيضًا مدعوٌّ، بل أنت ضيف الشرف الرئيس على طاولة عشائنا الليلة، لا تعتذر ولا تقل شيئًا، اذهب إلى فندقك، وارتدِ ملابس أنيقة جدًا جدًا، واحضر للعنوان التالي، لا تنس، قلت ملابس أنيقة جدًا جدًا، فهناك أناس مهمون أريد منك أن تتعرف عليهم.

لم أكن أدرك ما يدور حولي طوال الأسبوع الماضي، إلا بعد أن أخبرتني به السيدة باتريسيا، تلك المرأة الأم خلال دقائق أوضحت ما دار معي خلال أيام، صريحة مباشرة، كسرت كل الحواجز واعتبرتني قضيتها.

أولًا حاولت أن تدخل بعض الحَب الرهباني من خلال المعلمتين لكنها لم تنجح، وها هي تحاول شيئًا جديدًا عبر حفل العشاء هذه الليلة.

لم أذهب إلى الفندق لكي أغير ملابسي بل توجهت إلى أحد محلات بيع أجهزة الحاسوب، فاشتريت جهازًا رخيصًا مستعملًا، يتناسب مع حاجاتي، وبعد ذلك استقللت سيارة تاكسي متوجهًا إلى منزل السيدة باتريسيا، فيلا جميلة مبنية من الحجر الأحمر يعلوها كرميد أخضر.. أعجبني لونه جدًا، فقد تعودت على لون الكرميد البني، أما الأخضر فهو لون يدل على حبّ الحياة، وهو أيضًا يدل على السيدة باتريسيا محبّة الحياة، ومحبّة مساعدة الآخرين.

لم أطرق الباب، لأنني ما إن نزلت من التاكسي حتى وجدتهم جالسين في ركن الحديقة يتبادلون الحديث، كانت السيدة باتريسيا ومعها السيد أنطوان، وهو مدير إحدى الصحف المحلية.

عرَّفتني عليه قائلة: هذا أنطوان.. مدير صحيفة ناجح جدًا، وصحفي كسول جدًا، فهو لا يكتب إلا مقالًا واحدًا كلّ عدّة أشهر، أتصدقُ يا عماد أنّ هناك صحفيًا يكتب مقالًا صحفيًا واحدًا كلّ عدّة أشهر؟

قلت: ألم تقولي إنه مدير صحيفة ناجح جدًا، إذاً.. هو مشغول أيضًا بإدارة شؤون الصحيفة، وهذا من المؤكد هو سبب إقلاله في كتاباته.

قال السيد أنطوان موجهًا كلامه للسيدة باتريسيا: لقد صدقت، إنّ صحفيّك الشاب صريح ومباشر، ثم قال: تفضل يا عماد اجلس. ما إن جلستُ حتى قالت باتريسيا: ألم أقل لك أن ترتدي بدلة رسمية؟ ألم أقل لك ذلك وأؤكد عليك؟ آه منكم يا شباب اليوم، عقلكم مشغول وفكركم تائه.

تحدثتُ للسيد أنطوان لبعض الوقت، حتى حان موعد تناول الطعام، فتناولنا طعامنا ثم جلسنا مع بعضنا بعضًا لفترة طويلة نسبيًا. قال بعدها السيد أنطوان للسيدة باتريسيا: لقد أخطأت عندما عرّفتني بهذا الشاب عماد، لقد أخطأت وعليك تحمل النتائج!

ثم أردف موضحًا: الآن عليك البدء بالبحث عن معلم جديد للعمل معك في معهدك اللغوي، فأنا لن أستغني عن لغة هذا الشاب الأدبية في كتابة المقالات، ولا عن جرأته الصادقة، وكما يقال يا سيدة باتريسيا جَنت على نفسها براقش، وأنت جنيت على نفسك وخسرت معلمًا جيدًا، وأنا سوف أكسب كاتبًا ممتازًا.

أنا والسيد أنطوان لم نتحدث إطلاقًا عن نيتي العمل لديه، فأنا لا أفكر بأن تكون الصحافة مهنتي، وإنما أمارس الصحافة لأهدافي الخاصة، والتي كان أولها كشف فساد طلال ومن هم على شاكلته وفضحهم، وثانيهما نصرة قضايا المستضعفين لتحقيق قدر من العدالة الاجتماعية.

أدركتُ أنّ السيد أنطوان أراد إحراجي عبر عرضه العمل عليَ بهذه الطريقة، فهو مدير ناجح وأنا لم أنسَ ذلك.

فالتفتُّ للسيدة باتريسيا وقلتُ لها، إن السيد أنطوان يمازحك ليس إلا، فأنا أدرس لكي أصبح محاميًا وأعمل معلمًا للغة العربية والإنجليزية لكي أتعلم الإسبانية، ولكي أوفر المال لدراستي الجامعية، أما العمل الصحفي فلا حاجة لي به، ولا حاجة بي له، فهو لا يعدو كونه هواية، وإذا ما أراد إنسان أن يقضي على متعته في ممارسة هوايته، فعليه أن يحولها الى عمل، عندها سيُضيع متعته ويقتل هوايته.. كما قلتُ يا سيدة باتريسيا السيد أنطوان يمازحك ليس إلا..

ودعتهما بعد أن شكرتُ السيدة باتريسيا على كرم ضيافتها، وعدتُّ أدراجي إلى غرفتي في الفندق.

أمضيتُ يوم الأحد في كتابة مقال جديد، ولكنني ما إن انتهيت من كتابته وإرساله للصحيفة، حتى وجدتُ قلمي يخطُّ على ورقة بعيدًا عن أزرار الكمبيوتر، مقالة عن الأنثى.

الأنثى.. ذلك الكائن الشفاف والغامض معًا، تلك الأنثى.. تلك القاتلة الشريرة محطّمةُ القلوب، تلك الأنثى الماء الذي يعبّأ به القلب، كتبتُ تائهًا بين تلك، وتلك.

أبقيتُ ما كتبته على الورق جانبًا، فأنا لم أكتب قبل اليوم في هذا النوع من المواضيع الأنثوية الشائكة، فالنساء متاهة.. وشرٌ لا بدّ منه.. ولا استغناء عنه.

وفي صباح يوم الاثنين، توجهتُ إلى المعهد وبدأتُ عملي كالمعتاد وفي المساء طلبتني السيدة باتريسيا فحضرتُ لمقابلتها.

قالت: أنت هنا منذ نحو شهر تقريبًا، وبعد شهر سوف تنهي تعلمك للغة الإسبانية التي تدرسها صباحًا، وسوف يقتصر حضورك للمعهد على الفترة المسائية.

قلت: هذا صحيح، وصحيح أيضًا أنني بعد شهر سوف أبدأ دراستي بالكلية الخاصة بالحقوق.

عماد، أعلمُ أنك رفضتَ عملك مع أنطوان لسبب أجهله، وأنك تتمنى العمل صحفيًا، فهذا باد جدًا على كتاباتك، إذا كان السبب هو حرجك مني، فلا تُحرج فلا مانع لديَّ أبدًا، فالأم تحبّ أن ترى صغارها يكبرون ويُحَلِّقون.

قلت: أما أنا يا سيدة باتريسيا فأخشى التّحليق، وأرغب بالبقاء هنا أعلم اللغة لطلابي، وأتعلم في جامعتي الحقوق، وبعد ذلك سوف أتعلم الطيران وأطير.

سيدة باتريسيا، عندما حضرتُ للعمل لديك سألتني عن حكايتي وقلتُها لك، ولكنني لم أقل لك عن الجزء الخاص من تلك الحكاية، والذي يعتبر أهمها وهو الجزء الذي كان بفلسطين واسمحي اليوم أن أطلعك عليها.

صَمَتَت وأشعلت سيجارتها بعد سماع قصتي بشكل كامل، وقالت:

كلّ ما قلته يا عماد أنا أعرفه جيدًا، وأعرف أدقّ تفاصيله، بل أعلم أكثر منك قبل نحو أسبوع كان ابن أخي هناك في بيت جالا يمضي إجازته مع العائلة فطلبتُ منه قبل أن يعود إلى تشيلي أن يذهب إلى قريتك ويسأل عنك، ولا تلمني على ذلك، فقد كنت قلقة عليك، فأنت واحد ووحيد، وظننتُ أنّ هناك ما يمكنني تقديمه من مساعدة لك إن عرفتُ قصتك، ما لا تعلمه يا عماد انك ما عدتَ تسمى هناك بالمعتوه، بل أصبحتَ قلم الحق، هكذا يطلقون عليك في قريتك، فبعد أن فضحتَ أحد الفاسدين هناك والذي على ما أظن اسمه طلال، تمّت إحالته إلى محكمة الفساد الإداري، وهو الآن يمضي حكمًا بالسجن

وحتى رئيس البلدية نجيب ونائباه، هما الآخران قد فرّا خارج فلسطين هربًا من المحاكمة بعد كشفك لفسادهما، فلقد شكّلت مقالاتك الصحفية المدعمة بالأوراق التي أُرفقَت بها دليلًا على فساد هؤلاء.

هل تعلم أنّ مدير المدرسة قد أُحيل إلى التّقاعد المبكر بعد أن اتضح أن شهادته الجامعية مزورة؟ عماد.. أنت فعلت ذلك لأنك مظلوم، ولقد أعانك الربّ على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، فلا تظلم نفسك، وعش حياتك، وانس الماضي وألقِ به وراء ظهرك، يا قلم الحق.

صمتت السيدة باتريسيا وهي تشاهد دموعي تنهمر من عيوني، دموعًا كُبتت منذ أعوام وأعوام.

لم أكن أدري أو أعلم شيئًا عما قالته، فأنا كنت عندما أحدث أمي في القرية، أرفض أن أسمح لها بالحديث عن أيّ أمر آخر غيرها، وأكرر قولي لها، إنه لم يعد شيء سواها يربطني بالغربة، ولذلك إذا ما أرادت أن أبقى على تواصل معها، فعليها أن تبقيني بعيدًا عن دائرة عقلاء الغربة.

لقد قالت لي أمي مرارًا وتكرارًا، إنّ هناك أخباراً تسرني في القرية، وأن القرية تبدلت وتغيرت، إلا أنني لم أتخيل ولو حتى بأحلامي أن يحدث ما حدث.

طلال الفاسد في السجن وأنا السبب، وكمال ومساعده حسن فرّا من فلسطين، هربا من السجن وأنا السبب.. يا الله، وحتى مدير المدرسة أحيل على التقاعد وأنا السبب.. بل إنّ أبي هو السبب، فقد وجدتُ لدى والدي في أحد أدراج مكتبه أوراقاً تدين فساد طلال، وتكشف تزوير ذلك المدير الأفّاق وزيف شهادته، أما رئيس البلدية ونائبه، فقد حصلتُ على الأوراق التي تدينهما عندما كنت أعمل عندهما.. عندما كنت جامعًا للقمامة، لم يكونوا يتوقعون أن أجمع قمامة أفعالهم الفاسدة، لأنشرها على صفحات الصحيفة، فتكون تلك القمامة هي من ألقت بهم في مزابل التاريخ.

آه منك يا سيدة باتريسيا، يا من تسبّحين بمسبحة أيقونة الصليب، لقد أزلت الغبار من على عينيّ، وواجهتني بما كنت أخشاه وأخاف منه، سوف ألقي بقناع الوجه الإنجليزي إلى الجحيم، وأعود عماد، عماد فقط لا غير.

فقرة (٦)

لا أقنعة ولا بَلَهَ بعد اليوم

يبدو أنّ الخوف إن زاد عن حده، تحول إلى مرض نفسي يشدّ صاحبه إلى هاوية الجنون.

لم أكن أخاف أبدًا، إلا أنني كنت أفضل الابتعاد عن المشاكل أو المواجهة، وفضلتُ أن أحيا حياة بسيطة، ولكن الأقدار شاءت لي أن أقع عن الحمار أولًا، ثم أن أضرب الحمار ثانيًا، أما اليوم فلقد أصبحت أكثر تصميمًا على القفز عن أي حمار يعترض دربي، وإن لم أتمكن من القفز عنه سوف أضربه، فلا حياة بسيطة بعد اليوم أيضًا.

أهلًا بالمواجهة، أهلًا بالعقلاء إن كان هناك عقلاء أصلًا، فعندما وُزِّعَت الأرزاق ووُزِّعَت العقول، كلٌّ رضي عن عقله معتبرًا إياه أفضل عقل يمكن أن يحصل عليه أحد في هذه الدنيا، ولم يرضَ أحدٌ عن رزقه قط، ولا أظنّ أنه من السهل أن يرضى الإنسان عن رزقه، رضيتُ عن عقلي ولكن لم لا أرضى عن رزقي؟ أليست سحر هي الأخرى رزق؟!

في المعهد داومتُ على الحضور لإعطاء دروس اللغة وتلقيها، أما الجديد فقد كان حضور أنطوان للمعهد من أجل إقناعي بالعمل معه بالصحيفة، ولقد استعان بالسيدة باتريسيا التي أصرّت على أن تجعلني أعمل معه، فوافقتُ مشترطًا أن أعمل بشكلٍ حرٍّ، أي ألا أحضر إلى مكتب الصحيفة إلا لتسليم المقالات، وأن أواصل العمل في المعهد كالمعتاد، ثم قلتُ له: بالنسبة للمقالات السياسية التي أكتبها إلى الصحيفة الفلسطينية، سوف أترجمها لتنشر لديك بصحيفتك، وذلك بلا مقابل، لأنني أريد أن أكتب بالسياسة بلا قيد أو شرط، إن أعجبك المقال انشره، وإن لم يعجبك فألقِ به في سلة المهملات، ولا تقلق.. فسوف أبعث إليك في كل أسبوع مقالًا، ولك حرية التصرف.

أما بالنسبة لما سوف أكتبه لصحيفتك بشكل خاص، فإنه سوف يتمحور حول مشاكل الشباب من حبّ وعشق وهجران، وهكذا تدفع لي مقابل كلام الحبّ والعشق، ولا تدفع لي مقابل كلام المقاومة والتحدي.

في اليوم التالي، أرسلتُ له مقالين، أحدهما مترجم والآخر كان ذلك المقال الذي سبق وأن كتبته عن الأنثى، فنشر أحد المقالين وهو اليأس في بداية الأسبوع، ونشر العاطفي في نهاية الأسبوع.

لمدة شهر كامل، سارت الأمور على ما يرام، إلا أنني فوجئت بآلاء تنتظرني في مكتب باتريسيا، فسلمتُ عليها، وتركنا المكتب متوجهين إلى الكافيتيريا الخاصة بالكلية، إلا أنها طلبت مني أن نذهب إلى مقهى قريب، فذهبنا وكان نفس المقهى الذي تخاصمنا أنا وسحر به، فهو يقع بجوار المعهد مباشرةً، بعد أن طلبتُ لها عصيرًا استشرتها بنوعه، وطلبت لي عصيرًا مثله.

قالت آلاء ونحن ننتظر قدوم العصير: أنا أريد أن أعتذر منك يا عماد.

قلت: عن ماذا تعتذرين؟

قالت: عن أنني كنت سبب انفصالك عن سحر

قلت: كيف ننفصل ولم نكن أصلًا مع بعضنا بعضًا

- أعلم، لكن سحر كانت قد مالت إليك وأظنها قد أحبتك، فحين عادت من أمريكا تحدثتُ معها طوال ليلة نومك على الأرجوحة، صحيح أنها لم تعترف لي بحبك، إلا أنني قدّرت ذلك، ولكي أثير غيرتها وأستفزها، قلتُ لها إنك قد عاكستني وقلتَ لي كلامًا حلوًا جميلًا.

يا عماد.. أنا أعتذر، فلقد بالغت كثيرًا بما قُلتُهُ عما حدث بيننا بالحديقة. رغبة مني في جعلها تغار، ولكي أحثها على أن تتخذ قرارًا وأن تصارحك بحبّها كما فعلتَ أنت في الطائرة..

عماد.. أرجو منك أن تقبل اعتذاري وأن تسامحني.

قلت: عذرك مقبول، ولم يكن هناك داعٍ أصلًا لهذا الاعتذار، فأنا أعتقد أن كلانا قد أخطأ، فأنا قلت لك بضع كلماتٍ لم أكن أتصور أصلًا أن تخرج مني،

وكم كنت أودّ لو أني قلتُ مثل تلك الكلمات لسحر، فلا أخفيك سرًا، إنني أحبّها، بل إنني أعشقها أيضًا، ولكنّ سحر تريد فارسًا على حصانٍ أبيض يرفع سيفه، ويقطع رقاب الأعداء، أما أنا فلست سوى شخص عادي لا أتناسب مع طموح سحر.

قالت آلاء: لا، لا، إنك لو تدري ما حل بها في الشهرين الماضيين لما قلت هذا الكلام، عماد إن سحر تحبّك حبًا كبيرًا، فسحر ما عادت سحر، أصبحت دائمًا حزينة، هائمة، ضائعة في التفكير، سحر تحبّك ولكنّها بعد أن بدأت تقرأ مقالاتك التي أصبحنا كلنا نقرؤها في البيت، وَجَدَت بك فارسًا سياسيًا، هذا ما قالته، ولست أدري كيف يكون الفارس سياسيًا.

مكتبة
t.me/t_pdf

فقلت: بأن يقول الحق أمام سلطانٍ جائر.

فقالت: ولقد قالت أيضًا إنها فقدتك، خاصة عندما قرأت مقالاتك عن حواء والإناث، أليست تلك المقالات يا عماد قاسية نوعًا ما؟

قلت: إذا كنت لا أخشى من السلطان، فلا أخشى من حواء.

قالت: لكن سحر تعتقد أنك تقصدها هي بكلامك، فعلى الرغم من أنّ كلامك عن حواء بشكل عام، إلا أنه حمّال لأوجه عديدة وخاصة إن كان حديثك عن الهجران.

قلت: دعينا من تحليل مقالاتي، ولنشرب العصير قبل أن يسخن ويذوب الثلج الذي بداخل الكأس.

قالت: وماذا بخصوص سحر؟

قلت: سحر أختي الصغيرة، وأنا أدعو الله لها بأن تجد فارسها وأن تصعد معه على حصانٍ محلّق، أما أنا فكما قلتُ لك، حبّي لها تحوّل إلى عشق، ولكني أعتقد أننا مثل شريطي سكة القطار، نسير معًا نعم، نلتقي لا، فأنا لا أجيد ركوب الخيل أو ترويضه.

ودّعتها بعد أن شربنا العصير، وبعد أن اتفقنا أن نلتقي في بداية الأسبوع في كافيتيريا الجامعة.

سرعان ما حلّت بداية الأسبوع، ووجدت نفسي جالسًا معها ومع سحر على نفس الطاولة، فلقد كانت سحر تدرس في نفس الجامعة معنا، فهذه الجامعة قد درس بها كلّ من أَخَوَيْ سحر وأختيها، فهم يعتبرونها مثل مدرسة ثانوية لا جامعة، فقد لاحظت أن آلاء وسحر لم تكفّا عن السلام على العديد من الصديقات والأصدقاء الذين يبدو أنهم أصدقاء طفولة أو أصدقاء مدرسة.

صامتًا مثل عادتي جلستُ.

استَأذَنَت آلاء متعللة بموعد محاضرتها، فبقيت أنا وسحر.

قالت: أحبك

قلتُ: أعشقك

- أنت فارسي وحبيبي، أنت قدري يا عماد.

- وأنت قدري، لكن لا أظنّ أنه قد كتب لقدرينا أن يلتقيا معًا، فطباعنا مختلفة، فأنا هادئ وأنت عاصفة، وأنا ماء وأنت نار.

قالت: ألم تسمع؟ لقد قلت أحبك.

- سمعت، وأجبتك وأنا أعشقك.

قالت: سمعتك ولكن ما بالك؟ ألا يكفي حبي لك وعشقك لي، بأن نفتح صفحة جديدة وننطلق معًا؟

قلت: سوف ننطلق لكن كل منا بطريق، اعذريني فأنا يجب أن أذهب إلى القسم الخاص بشؤون الطلبة الجدد، لكي أحصل على جدول محاضراتي، سحر، أتمنى لك التوفيق من كل قلبي، لكن بعيدًا عن قلبي.

تركتها متوجهًا للحصول على جدول محاضراتي، لكنني حصلت على سقطة لا تقل عن سقطتي عن الحمار، فلقد اكتشفت أن والد سحر أبا صالح كان يكذب عليَّ، فالدراسه لم تكن مجانية في الجامعة، بل قام هو بدفع تكاليف دراستي من ماله الخاص، فاتصلتُ به معاتبًا إياه وشاكرًا حسن نواياه على محاولته تقديم المساعدة لي، ولكنني كما سبق، قد قلت لا لأنني لا أرغب بمثل تلك المساعدة أبدًا.

عدتُ مسرعا إلى المعهد، وعادت معي تلك الغيمة التي كانت قد لبدت سمائي في أمريكا، وما زاد الغمامة عتمة وسوادًا، هو قسوتي على سحر، تلك القسوة التي أردت منها أن أروّضها لا أكثر، فأنا أحبها وسوف أبقى أحبها، كنت أود لو أن الزمن يعود بي ساعة واحدة، لكي أقول لها كلامًا غير الذي قلته.

صحيح أن الفتيات يملكن عقولًا صغيرة، ولكن الصحيح أيضًا أنني أملك عقلًا أصغر منهن جميعًا.

بلا جامعة وبلا سحر، وبلا بوصلة أيضًا، لقد أضعت شهرين كاملين في تعلم لغة جديدة، وها أنا بعد تعلمي لتلك اللغة لم أعد بحاجة لها.

ضاعت البوصلة.

نعم، فأنا لو كنت عمادًا الذي يدرس طريقه قبل أن يمضي به، ما حدث لي ما حدث، لو أنني ذهبت إلى الجامعة منذ اليوم الأول لوصولي إلى تشيلي بدلًا من البحث عن عمل ومن الخصام مع سحر، ما كان هذا حالي.

توجهت إلى معهد اللغات، فوجدتُ السيدة باتريسيا جالسة في مكتبها، ما إن رأتني حتى قالت: أليس اليوم هو أول أيام جامعتك وبداية عامك الدراسي؟

قلت: أول يوم وآخر يوم أيضًا، شرحت لها ما حدث معي فقالت:

لا تحزن، ولا تغتم، فالحل موجود وسهل، كل ما عليك فعله هو إثبات أنك تعمل بوظيفة ثابتة ذات راتب جيد، وبذلك تحصل على قرض تعليمي، وأنا سوف أكفلك لدى البنك، قم معي حتى نسوّي الوضع فورًا.

توجهنا مباشرة إلى أحد البنوك التي تتعامل معها السيدة باتريسيا، وهناك كان باستقبالنا أحد أبنائها، فهو يعمل بذلك البنك، ابنها لم يقلّ عنها حبًا في مساعدتي، وخاصة أنه كان من متابعي كتاباتي ومن المعجبين بي، من خلال ما كانت أمه تقوله عني..

قام بالاتصال بالجامعة وأنهى إجراءات تسجيلي بها مرة أخرى، وإجراءات حصولي على القرض التعليمي..

عدتُ مع السيدة باتريسيا إلى المعهد بعد انتهاء جميع الإجراءات المطلوبة منها. عدنا فرحين، فذهبت هي لمكتبها وأنا ذهبتُ لإعطاء الدرس لطلبتي، فقد حان موعده.

في صباح اليوم التالي، توجهتُ إلى الجامعة وأنا أنوي رؤية سحر والتصالح معها..

لم أجد سحرًا، بل وجدت آلاء وأخبرتني أن سحر قررت العودة إلى أمريكا، لأنه لم يعد لديها رغبة بالبقاء في تشيلي أو في الجامعة معك، على الرغم من أن والدي قد قال لها إنك رفضت منحته المالية، وأنك قد تعود إلى فلسطين، إلا أنها أصرت على السفر، وغضبت جدًا من والدي لأنه أخفى عنك حقيقة المنحة.

لماذا أنت بالجامعة؟ ألم تترك الجامعة؟ ألم تسافر؟

قلت لها: أنا هنا لأنني حصلت على قرض تعليمي من البنك أسدده من خلال عملي في المعهد، وهذا غير مهم، إنني هنا لأنني أردت مصالحة سحر، والاعتذار عن الكلام القاسي الذي قلته لها.

قالت آلاء: بالنسبة للجامعة يبدو أنك نجحت بالعودة إليها، أما سحر، فأظن أنك قد فقدتها إلى الأبد..

ودعتُ آلاء، وتوجهتُ إلى منزل السيد نزيه أبي صالح، هناك وجدته ووجدت السيدة أم صالح جالسين يتناولان قهوتهما على طاولة بالحديقة، فسلمتُ عليهما، وطلبت مقابلة سحر، فقالا لي إنها تعدُّ حقيبتها استعدادًا للسفر، فهي سوف تسافر بعد عصر اليوم.

شربت معهما القهوة لكن بعد أن وافقا على طلبي، طلبي كان بسيطًا جدًا، فقد قلت لأبي صالح عندما قدم لي القهوة: أنا لا أشرب قهوتك حتى توافق على خطبتي من ابنتك سحر.

كم كان سعيدًا، وكم كانت أم صالح سعيدة، فوافقا على الفور.

وقالت أم صالح: كنت أعلم أنكما تناسبان بعضكما بعضًا منذ اليوم الأول.

وأردف أبو صالح: وأنا أيضًا.

قلت: حسنًا، سوف أحضر الليلة مع السيدة باتريسيا والسيد أنطوان لنطلب يدها بشكل رسمي.. وداعًا.. قلتها وأنا أقبل يد أبي صالح ويد أم صالح.

عندما حان موعد سفر سحر، حملت حقيبتها، وتوجهت لتوديع والديها، فقالا لها إنهما قد ألغيا موعد حجز تذكرة سفرها لأنه سيزورهما ضيوف مهمّون، غضبت سحر وحاولت أن تغير رأيهما، إلا أنهما كانا حازمين جدًا معها، فخضعت لهما، وعادت تحمل حقيبتها وتحمل دموعها، دموعها على عدم سفرها، وعلى فراقي لها.

سحر لم تكن تعلم بما قد حصل بيني وبين والديها قبل ساعات، فقد طلبت من والديها ألاّ يخبراها بما حصل، بيني وبينهما، وأخبرتهما بما حدث بيني وبين سحر يوم أمس في الجامعة، كنت أخشى من ردّة فعل سحر، فهي لم تقلّ عني عبثيةً وجنونًا.

عندما حلّ المساء، كنت أنا والسيدة باتريسيا والسيد أنطوان قد جلسنا في غرفة استقبال الضيوف في منزل السيد أبي صالح، حضرت السيدة أم صالح مرحبة بنا، وتبعنا ابنها صالح، ثم والده، ثم سحر، حبيبة قلبي وحلمي، فوجئت بوجودي، بل إنها كادت تصرخ، إلا أنها جلست بجوار باتريسيا.

أحضرت الخادمة القهوة، إلا أن أم صالح اعتذرت منا وأعادت القهوة مع الخادمة مرة أخرى، ونادت على سحر لتلحق بها، سحر لم تكن تعلم أن من عادة العروس تقديم القهوة عند طلب يدها لذلك حملت صينية القهوة وقدمتها لنا، ابتداء من السيد أنطوان، ثم والدها، فالسيدة باتريسيا، فوالدتها، فأنا، ثم أخيها، هكذا كانت أمها قد قالت لها أن توزع، فوزعت، ولقد زاد هذا غضبها، ما إن وضعت آخر فنجان من القهوة حتى أشارت لها والدتها بأن تترك غرفة استقبال الضيوف.

تركت سحر الغرفة فطلب السيد أنطوان يدها من أبي صالح، فقال أبو صالح: يجب أن نسأل أولًا وقبل كل شيء صاحبة الشأن سحر، فطلب من أم صالح أن تتوجه لسؤال سحر.

كنت خائفًا، بل كنت أرتعش من أن تكون ردة فعل سحر سلبية، وترفض خطبتي لها، إلا أنها كانت قد أنهكت من مناكفتها لي، ومن مناكفتي لها فوافقت، فإذا بأم صالح تعلي صوتها بالزغاريد.

لم أكن وحدي من ينتظر سماع صوت زغاريد أم صالح، فلقد كانت والدتي هي أيضًا تنتظر في فلسطين على أحرّ من الجمر سماع تلك الزغاريد المثيرة بقبول طلبي لخطبة سحر، فقبل حضوري لطلب يد سحر كنت قد اتصلت بوالدتي وأخبرتها عن رغبتي تلك، فباركت لي اختياري ودعت لي بالتوفيق، فلا توفيق إلا برضا الأم، فهي من تجثو تحت قدميها الجنة، ومن إن رضيت رضي ربي، فهي صاحبة المشروع، فلولا إرادتها وتصميمها لما وصلتُ إلى ما أنا عليه، إلا أنه ويلا رضاها ودعائها لا أظن أنني سوف أصل إلى شيء ما في المستقبل.

شكرًا، أماه يا من كنت لي خير سند، وأشهد بأن أكون لك خير ولدٍ وعضد. أبلغت والدتي عبر الهاتف فور سماعي لصوت الزغاريد، وما إن انتهيت من إبلاغها بذلك حتى وصلت أم صالح، فأعطيتها الهاتف لتكلم أمي.

سحر لم تنزل إلى قاعة الضيوف، بل بقيت في غرفتها، ما إن شربنا القهوة حتى اتفقت مع أبي صالح عن طريق السيد أنطوان أن تكون حفلة خطبتنا بعد أسبوع واحد، وأن يكون الزواج بعد تخرجي وتخرج سحر من الجامعة، أي بعد نحو عامين.

ودَّعنا عائلة أبي صالح، وعاد كل منا إلى منزله، أما أنا فقد عدت إلى غرفتي في السكن الجامعي، حيث كنت قد تركت الفندق، على الرغم من أنني كنت مرتاحًا بالسكن فيه.

لم أرَ سحر و لم أكلمها في تلك الليلة، أعلم أنها غاضبة وأعلم أنها متفاجئةٌ أيضًا، والأهم هو أنني أجزم أنها تحبني كما أنا أحبها، إن لم يكن أكثر، عيناها كانتا تقولان ذلك، على الرغم من الغضب الذي كان يدور بداخلهما، إلا أن الحب كان أقوى من ذلك الغضب، فهي لا تملك أقنعة ولا تستعملها، فهي شفافة طيبة.

وكل ما تحتاجه هو يد تمتد إليها لتساعدها على اجتياز نهر العواصف، نهر المراهقة، فهي لا تزال ابنة التسعة عشر عامًا، وأنا لا أكبرها سوى بعام واحد أو يزيد، إلا أنني إن قِستُ عمري بتجاربي التي مررت بها، فأظن أنني أكبر منها بألف عام وعام.

كنتُ ممن يرددون تلك المقولة الجميلة:

إنه ليس لحياتنا قيمة إن لم نجعل بين جوانحنا ما نستحقّ الحياة لأجله.

كنت أولًا أواظب على الدراسة مع والدتي لأنني أردتُ أن أثبتَ لعقلاء القرية أنني أكثرهم عقلًا وذكاء، وقد نجحتُ بفضل الله عز وجل، وبفضل مثابرة أمي واجتهادي.

وبعد ذلك أردتُ أن أكشف زيف فادي قريبي، ونجحتُ، بل إنني تمكنت على الرغم من وجودي خارج أرضي فلسطين، من ملاحقة الفاسدين وكشف زيفهم من خلال معاتبة كثر يعيشون في دوائر العقلاء هناك.

وها أنا اليوم أواصل تعليمي، وقد ارتبطت بالفتاة التي أعشق، فماذا بقي لي تحت جوانحي أستحق الحياة لأجله؟؟ وهنا أجد نفسي مجرورًا إلى ذلك السؤال، وهل هو حقيقة أم وهم وخيال؟ أصحيح أن الإنسان يموت عندما يفقد القدرة على التميز، لا عندما يفقد القدرة على التنفس؟

هل بقي لديَّ أمانٍ وأحلام أسعى إلى تحقيقها؟

نمت والأفكار لم تنم، ولا أظنها سوف تنام يومًا.

لبستُ أجمل ما عندي، وتوجهت إلى كافيتيريا الجامعة، وجلست منتظرًا، رأيتُ سحر، فأنا لم أشأ أن أكلمها بالهاتف، بل أردت رؤيتها كي أرى في عينيها الحبّ، وقد أصبح نورًا ساطعًا متوهجًا.

انتظرت فلم تأتِ، فتوجهتُ لحضور محاضرتي التي حان موعدها، بعد عدة محاضرات، وقبل توجهي للمعهد لإعطاء دروس اللغة هناك، توجهت إلى الكافيتيريا بحثًا عن سحر، فوجدتها جالسة مع أختها آلاء،

فتوجهت نحوهما، وما إن جلست حتى قامت سحر عن الكرسي وقالت لآلاء: سوف أسبقك إلى البيت، وداعًا ولا تتأخري.

لم أتمكن من مشاهدة عينيها كي أدرك ماذا حلّ بها، فأنا أصبحت أقرأ ما بداخل سحر من خلال عينيها. قبل أن أسترسل بالتفكير قالت لي آلاء: سحر غاضبة منك جدًا، وتريد فسخ الخطبة.

قلت: هل أبلغت والدتك ووالدك بذلك؟

قالت: لا

قلت: وهل أبلغتني أنا بذلك

قالت: لا

قلت: إذا سحر لا تريد فسخ الخطبة، بل تريد قطع رأس القطة

قالت: أنا لا أفهم، ماذا تعني بقطع رأس القطة؟

قلت: اسألي أمك هي من سوف تجيبك ، سلمي لي على حماتي الغالية أم صالح حتى تهتم بالقطة

ثم ودعت آلاء، وتوجهت إلى المعهد، ثم إلى الصحيفة لأسلم مقالًا يتعلق بفكرة أردت أن تكون عنوان المرحلة الحالية من صراعنا العربي الصهيوني.

كتبتُ بذلك المقال عن دعوتي لأن نكون مجتمعًا متدينًا ينهض بعقلانية، متدين مسلم، متدين نصراني، محافظ من خلال أصولنا الشرقية، وعاداتنا الأصيلة، وقيمنا الدينية وعلى روحنا القديمة، ونحيي ما مات من تلك العادات والقيم من جديد، لننهض بمجتمع عقلاني بعيد عن التشدد الديني الأعمى، وبعيدًا عن الانصهار في ثقافة العلمانية المنحلة، أعجب السيد أنطوان بالمقال على الرغم من أن السيد أنطوان ليس من رواد الكنيسة الدائمين، فهو لا يزور الكنيسة إلا لحضور قداس أو إكليل، أما صلاة الأحد فكان لا يؤديها إلا قليلا. على عكس السيدة باتريسيا، فهي مصلية متفانية في أداء عبادتها.

أعجبت الفكرة أنطوان، فقرر عقد ندوة في أحد الأندية الثقافية التابعة للجالية الفلسطينية، فوافقتُ، فأجرى بعض الاتصالات السريعة، وقال لي موعد الندوة عصر يوم خطبتك الرسمية.

قلت: أليس من المفروض أن أتفرغ بذلك اليوم لإعداد تجهيزات الخطبة مع خطيبتي سحر؟

قال: لا عليك، ما دامت باتريسيا أصبحت أمك هنا في تشيلي، فلا تخشَ شيئًا، بل إن خطيبتك هي من يجب أن تخاف من حماتها باتريسيا.

قلت: حسنًا، سوف أرتّب ما يمكن ترتيبه مع السيدة باتريسيا بخصوص حفلة الخطبة، وأرتب معك جدول الندوة الفكرية.

في اليوم التالي، أخبرت السيدة باتريسيا برغبتي في أن تساعدني في الإعداد لتجهيز الخطبة..

فقالت لي: يا عماد، يا ابني، اذهب إلى جامعتك، ولا ترني وجهك سوى مساء يوم الخطبة، ولكن لا تنسَ إحضار دبلتين للخطبة معك، فلقد بدأت أنا والسيدة أم صالح منذ ليلة قراءة فاتحتك على سحر بالإعداد، وبالتجهيز والاستعداد، ولقد أنجزنا تقريبًا كل ما يلزم، فلا تنس أنك أصبحت أمانةً عندي بعد أن قالت لي والدتك ذلك، وطلبت مني أن أعوّضك عن غيابها في فلسطين.

عماد، تابع دراستك ولا تشغل بالك أبدًا بتلك الاستعدادات، فأنا قادرة مع أم صالح أن نحلّ ما يواجهنا من مشاكل لا تقلق.

صحيح.. لقد أخبرني أنطوان عن موضوع الندوة الصحفية، ولقد أعجبتني، ولكنني لا أستطيع الحضور لانشغالي بالتجهيز لحفلة خطبة ولدي، أخبر ذلك لأنطوان، وقل له ألاّ يتأخر بالحضور إلى الخطبة، وأنت أيضًا يا عماد مدعو للحضور إلى الخطبة، فلا تتأخر، ولا تجعل أنطوان يؤخرك.

ضحكتُ مما قالته السيدة باتريسيا، وقبلت يدها شاكرًا إياها على ما قامت به، وما سوف تقوم به لأجلي.

سحر ترفض أن تتحدث معي، وأنا أيضًا لن أتحدث معها، فهي لم تتصل وأنا لن أتصل، كل واحد منا يجلس على طاولته بالكافتيريا مشغولًا مع زملائه، بعيدًا عن الآخر.

هذا ما كان عليه الوضع طول أيام الأسبوع، باستثناء أن آلاء كانت تتكلم معي كل يوم متجاهلة سحر، حتى إن آلاء قالت لي: «أم صالح بتسلم عليك، وبتقولك هيك بدي إياك، اقطع رأس القط من أول يوم وإلا رح القط يقوم يخرمشك طوال حياتك».

وأردفت آلاء قائلة: الصحيح أمي معها حق، نحن دللنا سحر كثيرًا، سحر يجب أن تنضج، أنت فاجأتها بموضوع الخطبة ولم تشاورها، لكن لو لم تفعل ذلك لكنتما بقيتما مثل القط والأسد، لا أقصد القط والفأر، فلا أعتقد أن هناك فأرًا قادرًا على ترويض قطة، أما الأسد فهو من نفس الفصيلة، وأظن أنه قادر إن أراد.

قلت: على الرغم من أننا قد قرأنا فاتحتنا منذ نحو أسبوع، إلا أننا لا نزال مثل القط والفأر، أو مثل المد والجزر، ما إن تلامس الشاطئ حتى تعود مع الأمواج إلى البحر.

قالت آلاء: سوف أحضر الندوة الصحفية غدًا.

قلت: ومن أخبرك؟

قالت: الكل يعلم، فخبر ندوة كاتبنا الصحفي المشهور عماد، موجود على كل مواقع التواصل في شبكة الإنترنت، ألا تتصفح تلك المواقع؟

قلت: لا، ولن أفعل

قالت: لكنك تحمل معك كمبيوترًا محمولًا، ولا أذكر أنني رأيتك مرة واحدة إلا وأنت تعمل عليه.

قلت: أعمل عليه أي أكتب مقالاتي، فأنا لست من محبي أجهزة الهاتف أو الكمبيوتر ولا أستعملها إلا للعمل.

قالت: لذلك أنت لم تتصل بسحر.

قلت: وهل كانت تنتظر مني مكالمة؟

قالت: بل تنتظر منك مكالمات ومكالمات، ألست خطيبها؟

قلت: الله أعلم، ألم تقل لك أنها تريد فسخ الخطبة؟

قالت: كلام في كلام، ولكن الحبَ أقوى من الكلام.

قلت: بل هو العشق، فأنا أعشق سحر بكل جوارحي.

قالت آلاء: إذًا قل لها ذلك.

قلت: سوف أقول لها ذلك في الوقت المناسب، ولا تسأليني متى ذلك الوقت المناسب، فأنا لا أعلم.

يوم الندوة الصحفية.. يوم حفلة الخطبة

يومان في يوم واحد، صحيح أن جبران خليل قال: إن للعظيم قلبين، قلب يتألم وقلب يتأمل. إلا أنني أفضل قلب الأخطبوط على قلب العظيم، فللأخطبوط عدة قلوب، وهكذا يكون هناك متسع لأن أضع عشقي لسحر في أحد تلك القلوب، وأن أضع عنادي في قلب آخر، فالعشق والعناد لا يجتمعان في قلب واحد أبدًا، فإما أن يقتل العشقُ العناد، وإما أن يقتل العنادُ العشق، وأنا لا أرغب بالاستغناء لا عن العشق ولا عن العناد، وسوف أقطع رأس القطة قبل أن تغرس أظافرها بجلدي، فأنا شرقي عربي فلسطيني معتوه، وأنا عاشق متيم عنيد.

صحيح أنني أعطي دروسًا في اللغة، لكنني لم أقف أبدًا لأكون ضيفًا في ندوة أو مؤتمر، أعددت أوراقي جيدًا استعدادًا لما قد أواجهه من أسئلة من الحاضرين في هذه الندوة.

فأنا أردت أن أجعل من كل حرف أقوله أمام من يستمع إلي بمثابة مسمار يدق لكي أثبت فكرتي عبر تلك الحروف، وأوضح ما أدعو إليه من فكرة الدينية النهضوية العقلانية، حملت الأوراق وتوجهت للمكان المحدد، هناك وجدتُ عددًا من أصدقائي الصحفيين، الذين يعملون في الصحيفة، ووجدت أيضًا السيد أنطوان.

كانت القاعة ملأى بالفتيات، فأنا لم أشاهد شابًا واحدًا، فقلت في نفسي إن رأيت البرق تبقى صوت الرعد، وإنّ العواصف المدمرة تحمل الكثير من البرق قبل وصولها.. هؤلاء الفتيات هنّ البرق، وعواصف التسونامي المدمرة قادمة لا محالة.

بدأت الندوة بعد أن قدمني السيد أنطوان للحاضرين، توجهتُ نحو المنصة وبدأت بالحديث عن فكرتي السياسية، وعما تمرُّ به منطقة الشرق الأوسط من تغيرات، وبعد أن أسهبت بشرح ما كنت أرغب بقوله، فتحتُ باب المناقشة والأسئلة للحاضرين.

فأمسكت إحدى الفتيات بالميكرفون المخصص للمشاركين، ووجهت لي السؤال التالي:

أولًا: أنا اسمي مها، طالبة في قسم الصحافة.

ثانيًا: أنت لست الأستاذ عمادالدين، فأنا شاهدت صور الأستاذ عمادالدين على إحدى مواقع التواصل في شبكة الإنترنت، وهو شخص كبير في العمر، أصلع، قصير، سمين، أما أنت فمن المستحيل أن تكون هو.

لم تكمل مها، وأخذت فتاة أخرى منها الميكرفون وقالت: أنا اسمي جانيت، حتى لو كنت أنت هو الأستاذ عمادالدين، فكلاكما مناصر لتحرير الأوطان، ومعادٍ لتحرير المرأة، أنت تقدمي رجعي في آن واحد.

قالت ثالثة: هل أنت مرتبط؟

وقالت رابعة: هل تعرف معنى الحب؟

وقالت أخرى: أنت أجمل من أن تكون كاتبًا، هل أبحث لك عن عمل في مجال عرض الأزياء؟

وقالت فتاة أخرى: إذا كنت قد دونت أسئلتنا على الأوراق أمامك فلا تدعي نسيان أي منها، ولتجب عليها جميعًا.

ما إن انتهت آخر فتاة من قول ما تريد، حتى انتهيت أنا أيضًا من العمل على عدم السماح للبرق المبهر أن يعمي عيني، ولا للرعد المدوي أن يصم أذني البتة.

أنا المعتوه في دائرة العقلاء، وما دمتُ نجوتُ هناك من تلك الدائرة، ألا أستطيع النجاة من دائرة حواء؟

قلت: أولًا وقبل أن أجيب عن أي سؤال مما طرح وسئل، أنا هنا لمناقشة فكرتي في تطور مسألة العدالة الاجتماعية، من خلال العودة إلى الدين، لكي ننهض بشكل عقلاني في مجتمعنا وصولًا للعدالة الاجتماعية.

فإذا ما أردتنّ مني الإجابة عن الأسئلة السابقة التي قمت بتدوينها، فيجب أولًا أن تسألنني عن موضوع هذه الندوة، وبعد ذلك لا مانع من طرح أي أسئلة مهما كانت شخصية أو عاطفية.

صمتُّ قليلًا، فوقف السيد أنطوان وقال: فلتبدأ الأسئلة، وفعلًا بدأت الفتيات بتوجيه السؤال تلو السؤال، وقمت أنا بالرد على تلك التساؤلات المتعلقة بموضوع الندوة، وما إن انتهت آخر فتاة من طرح سؤالها حتى أجبتُ عليه، ثم قلت: الآن، سوف أجيب عن الأسئلة السابقة.

أولا: أنا لست أستاذًا، وهذا صحيح، والصحيح أيضا أنني عمادالدين، ولست عجوزًا أصلع، سمينًا، قصيرًا، فأنا كما ترون جميل وسيم، أما بالنسبة لتهمتي بأني لست نصيرًا للمرأة فهذه التهمة صحيحة مئة بالمئة، فأنا نصير للرجل، لأن المرأة قد أصبحت في وقتنا الحالي أقوى بكثير من الرجل، ولذلك توجب عليَّ الدفاع عن الرجل لكونه أصبح مستضعفًا في زمن استأسدت فيه القطط.

بالنسبة للفتاة التي سَأَلَتني هل أنت مرتبط؟ جوابي أنني لا أعلم بعد، وعند انتهاء اليوم قد أكون قد علمت جواب هذا السؤال.

وللفتاة التي قالت هل تعرف الحبّ، أقول: لا، أنا لا أعرف الحبّ، فالحبّ مثل المياه الراكدة، لا تحمد عقبى السباحة بها، فأنا أفضل الانتقال سريعًا من مرحلة الإعجاب إلى مرحلة العشق، متجاوزًا الحبّ كي لا أغرق به.

أما بالنسبة للفتاة التي قالت إنني أجمل من أن أكون كاتبًا، وأنها تنصحني أن أكون عارضًا للأزياء، فلا مانع لدي ما دام الأجر مجزيًا.

الآن.. لقد انتهيت من الردّ على الأسئلة التي كنت قد كتبتها، إذا كان هناك سؤال آخر فأتمنى سماعه.

أخذت إحدى الفتيات الميكرفون وقالت: هل أستطيع خطبتك من أمك؟

قلت: طبعًا تستطيعين أن تخطبيني من والدتي، فإن وافقت فإنها سوف تستشيرني، فإن وافقتُ أنا فسوف أستشير خطيبتي، إن كان عندي خطيبة أو زوجة، فإذا ما وافقت فلا مانع لدي أبدًا، على شرط أن أعدل.

فقالت الفتاة: حسنًا، أنا أعلن أمام كل الحاضرين عن طلبي لخطبتك والارتباط بك. فما قولك؟

قلت: أمي موافقة، فهذا ما أخبرتني به قبل نحو أسبوع، وأنا موافق أيضًا، وأظن أن خطيبتي موافقة ولا مانع لديها من ذلك.

صَمَتَ كل من كان في القاعة، فلقد كانت الأصوات قد تعالت كثيرًا خلال هذه المجادلة الكلامية الطويلة بيني وبين الفتاة، فقلتُ عندما حَّل الصمت مكان الضجيج: وأنا أعشقك.

فقالت الفتاة: وأنا كنت أحبك، واستطعت النجاة من بحر حبك بطوق نجاة عشقك.

نزلت إليها من على المنصة، وتوجهت نحوها وأعطيتها خاتمًا، فَوَضَعَتهُ في يدي، فرفعتُ يدي معلنًا أنني قد أصبحتُ مخطوبًا لتلك الفتاة، وأخذتُ خاتما آخر من العلبة ووضعته بإصبع يدها فَرَفَعَتهُ ملوّحة به.

تعانقنا وتوجهنا عائدين نحو منزل العم أبي صالح، وما إن وصلنا حتى كانت السيدة باتريسيا والسيدة أم صالح على أتم الاستعداد لاستقبالنا، وعلت الزغاريد.

فقرة (٧)

لم أكن أسدًا..

بل كنت عاشقًا مندفعًا، وكانت هي محبة مترددة، تحول عشقي المندفع إلى عشقٍ ثابت الجذور، وتحول حبّها إلى إصرار على العشق بدلًا من التردد والضياع في بحر الحبّ.

سحر ردّت لي الصاع صاعين، فبعد أن تقدمت لخطبتها من دون علمها، ها هي تتقدم لخطبتي من دون علمي، وقد تقبّلت ما فعلته بصدرٍ رحب، فأنا لم أكن أعتبر نفسي أخوض معركةً ضدّها، بل أخوض معركةً معها، وها نحن قد أصبحنا منتصرين بعد أن علت الزغاريد وعاودنا لبس خواتم الخطبة مرة أخرى أمام من كانوا في انتظارنا بالحفل الذي أعدّ لنا في منزل أبي صالح.

ليس أجمل من الحبّ سوى انتصار العشق عليه، فهنا يتجلى الجمال فيصبح الحبّ في أحلى صورة.

ما إن انتهت الحفلة حتى عدتُ إلى غرفتي في سكن الجامعة، لكنني لم أفكر ولم أنم أيضًا، بل قمتُ بالاستعانة بأحد أصدقائي بالجامعة لكي يعلمني كيف أستطيع التجول بالمواقع الإلكترونية في عالم الإنترنت، فبدأ يعلمني كيف أستعمل الفيس بوك ثم الجوجل بلس والتويتر وغيرها من المواقع، وبعد ذلك طلبت منه أن يفتح لي حسابًا في كل تلك المواقع، ووضعتُ به عددًا من صوري، وعددًا من مقالاتي القديمة بعدة لغات عربية، وإنجليزية، وإسبانية أيضًا، واستمر العمل لساعات الصباح الباكر فأمضيت يوم الأحد نائمًا.

أدركتُ بعد تلك المحاضرة التي أقمتها في الندوة الصحفية، كم كنتُ بعيدًا جدًا عن عالم الواقع، فأنا أعيش على ورق صحف الجرائد طوال العامين الماضيين، ولكنني لم أكن أعلم أن أنطوان كان يضع مقالاتي على موقع صحيفته على الشبكة العنكبوتية،

وأن تلك المقالات كانت تنتقل من متصفح لآخر من خلال مواقع التواصل الاجتماعي.

وما جعلني أصاب بالذهول، هو كيف استطاعت مجموعة الفتيات أن يتجمعن من خلال تلك المواقع للحضور إلى الندوة من أجل الانقضاض عليَّ، فانا لم أكن أعلم أصلًا أنّ هناك مجموعات في تلك المواقع، كانت تتناقش وتجادل وتحلل ما كنت أكتبه.

لقد رأيت صورة كاريكاتورية قد وضعت لي بجوار إحدى المواقع التي نشرت كتاباتي، وكانت الصورة طبق الأصل لما وصفته الفتاة في الندوة الصحفية، كنت أصلع، سمينًا، وقصيرًا أيضًا.

لكن كان عزائي الوحيد أنني لم أكن أستعمل الحاسوب سوى لكتابة مقالاتي وإرسالها إلى الصحيفة في فلسطين، والآن إلى الصحيفة في تشيلي.

لقد ولدتُ في قرية لم تكن الهواتف العادية منتشرة بها بعد، سوى بشكل محدود حينها، ولم أتلقَ تعليمي في المدرسة الحكومية في القرية، مما جعل جهلي بعالم الحاسوب مبرّرًا، على الأقل من وجهة نظري.

يبدو أنني كنتُ في عالم الإنترنت مثلما كنتُ في عالم العقلاء، فلقد كنتُ هنا وهناك مجرد معتوه في دائرة العقلاء، صحيح أنني نمتُ تلك الليلة بعد طلوع الفجر، إلا أنّ مجموعات الفتيات لم تنم قط، فقد كان آخر ما قرأته من تعليقات كُتبت عني تقول:

سحر تسحر الضفدعة فتحولها إلى أمير.

وأخرى تقول: سحر تخطف عمادالدين وتفرُّ به على حصان الحب.

حتى إنني وجدت بذلك البلد على الرغم من عدم مضي يوم واحد على حفل خطبتي، عددًا كبيرًا من صور الحفل في مختلف المواقع، لكنني كنت ارتحت قليلًا عندما أدركت أن الفتيات اللواتي كنّ على أغلب تلك المواقع، قد توصلن إلى نتيجة تقول أنني لست عجوزًا أصلع خرفًا، وإنما شاب جميل وقح.

كانت الوقاحة أفضل كثيرًا من الخَرَف بنظري، أما كبر العمر وزوال الشعر فهذه سنة الحياة، ولا اعتراض لي عليها.

حتى إن كلمة جميل أعجبتني جدًا، فأنا عندما كنت في القرية أجمع القمامة أو حتى في أمريكا أدرس الحقوق، لم أكن أقف أمام المرآة أبدًا، فلقد كنت أفرُّ من المرآة لأنني عندما كنت مصابًا بكسر بالجمجمة، كنت لا أحبّ رؤية رأسي وهو ملفوف بالكثير من الضمادات، ولذلك لم أكن من هواة المرايا، أما الآن فأظنّ أنني أصبحتُ من هواة النظر بالمرايا، ومن متصفحي الإنترنت، ومن عاشقي الحبّ.

استيقظتُ على صوت طرق على باب الفندق، وقبل أن أتمكن من القيام لفتح الباب، كانت الجميلة سحر قد فتحته ودخلت.

قالت سحر: إيش يا أسد؟؟

قلت: أهلا بسيدة الأسد، شبيك لبيك أسدك بين إيديك.

ضحكت سحر: لا غالب ولا مغلوب.

قلت: نعم، لا غالب ولا مغلوب، وإنما قلب يجمع المحبوب بالمحبوب.

قالت: أعطني جهاز حاسوبك لأكتب هذه الجملة على موقعي.

قلت: اكتبي أيضًا أنّ عمادالدين قد أصبح أرضًا وقفًا، لا تباع ولا تشترى، وتخطب ولا تفسخ خطبتها أيضًا.

تركتها تكتب ما تريد من تعليقات، وقمت لكي أبدل ملابسي، وبعد ذلك توجهنا إلى مقهى في وسط المدينة لنتناول طعام الغداء به، ونشرب الشاي.

فأنا لا أحب المطاعم، فجوها يشعرني أنني داخل مطبخ، أما المقاهي، وعلى الرغم من قلة نوعيات الطعام بها، إلا أنها تجعلني أستمتع بالأكل فيها كثيرًا.

قالت سحر: بعد أن تناولتَ طعامك، وبدأتَ بشرب الشاي، قل لي من أين سنبدأ؟

قلت: وكيف لنا أن نبدأ، ونحن لم نتوقف أصلًا، فعلى الرغم من أننا صامتان، إلا أنّ كلًا منّا يناكف الآخر، وما دمنا نتناكف بشكل مستمر، فهذا يعني أننا لم نتوقف،

ولذلك فلا داعي لنبدأ ما دمنا لم نتوقف، ولكن ما دمتِ سألتني من أين نبدأ، فأقول لك لنبدأ من المطبخ، تعلّمي كيف تعدّين لي «المجدرة»، فأنا أحبّها، ولم أتناولها منذ أعوام، المطبخ أولًا، فمعدة الرجل أقرب طريق إلى قلبه.

قالت سحر: أنت مجنون، أهذا كلام يقوله الخطيب لخطيبته في أول مرة يخرجان فيها بعد خطبتهما؟!! إنك مجنون.

قلت: أشهد أنّ الحبّ كالفنون، إن لم يكن مجنونًا فلا طعم ولا رائحة له، صحيح، يا ريت بعدما تتعلمي طبخة المجدرة، تغسلي يديك جيدًا لأنني لا أحبّ رائحة البصل.

قالت: عسل والله عسل.. خطيبي عسل، بطعم البصل، ما رأيك أن نتصفح الإنترنت لعلّ هناك شيئًا جديدًا؟

قلت: أوله دلع، وآخره ولع وإدمان، هذا الكمبيوتر المحمول وما به من مواقع للتواصل.

قالت: سحر تقبل الضفدع فتحوله إلى أمير.

قلت: وسحر تخطف عمادالدين وتفرُّ به على حصان الحبّ.

قالت: إذن بدأت تتابع ما يُكتب على المواقع، إذًا فيفا تشيلي، فلتحيا تشيلي التي جعلتك تتابع المواقع على الشبكة العنكبوتية.

قلت: فليحيا العشق الذي فتح عيوني على الدنيا بأسرها.

أمضينا يومنا على هذا النحو من المزاح والمناكفة، وبعد ذلك توجهنا لتناول العشاء في منزل والدها، فقد أعدّت أم صالح عشاء خاصًا على شرف خطبتنا، ودعت إليه عددًا من أفراد العائلة والمقربين.

في تلك الليلة، تعرّفت أكثر على عائلة أبي صالح، وأعتقد أنني نجحت بأن أُصبح عضوًا في تلك العائلة أيضًا، فإخوة سحر الكبار، سواء كانوا صبيانًا أو بنات، كانوا يتعاملون معي كأنني أخوهم الصغير مثل سحر، فهي أيضًا أصغر إخوتها، كانوا سعداء بحبّنا، وكانوا أسعد بمناكفاتنا.

في تلك البلاد، أدركتُ أيضًا كم أنّ عائلة أبي صالح عائلة بسيطة متواضعة جدًا، على الرغم من غناها المادي الكبير، فهي ما زالت عائلة واحدة متماسكة.

بعد نحو شهر من حفل الخطبة، أعاد طليق دارين طلب يدها، رافضًا ضغوط أمه، مصرًا على انتصار حبّه، مفضلًا الحبّ على إنجاب الأولاد، ومنذ ذلك اليوم أصبح أبو صالح يسميني عماد جالب الحظ.

وما أكدّ على ذلك هو أنه وبعد مرور قرابة ستة أشهر على عودة دارين إلى زوجها السابق، خُطبت المهندسة بتول وحُدد موعد زفافها في بداية الصيف، أي في نهاية عامنا الجامعي.

حلّت نهاية العام الدراسي، فتخرجت أنا من سنتي الثالثة بالجامعة، وتخرجت سحر من سنتها الثانية، وبدل أن نحتفل بمناسبة نجاحنا، احتفلنا بمناسبة زواج بتول، ذلك الزواج الذي ما إن شاهدته حتى خِفتُ من أن يحلّ موعد زواجي بعد عامين، فقد كان حفل الزواج حفلًا أسطوريًا بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، وأظنّ أنّ تكاليف حفل الزواج قد تجاوزت المئة ألف دولار وأكثر، صحيح أن وضعي المادي بدأ يتحسن قليلًا، وأصبحتُ أملك بضعة آلاف من الدولارات، إلا أنني أعتبر أفقر من فقير إذا ما قورنت بزوج دارين أو زوج بتول.

تلك الأمور لم تكن في حساباتي عندما قررتُ خطبة سحر، لكنّها الآن أصبحت أمرًا لا يمكن تجاهله، فالكتابة الصحفية لا يمكن أن تحقق لي الثروة أبدًا، لم أكن أسعى للثروة، ولكني أردتُ ألا أكون أقل من أزواج أخوات خطيبتي.

ظلّ هذا الهاجس يراودني طوال عامي الأخير في كلية الحقوق، ولكني بقيتُ أكتب المقالات، وأشارك بالندوات، وأعلّم اللغات في معهد السيدة باتريسيا.

استمر هذا الحال حتى آخر يوم لي في الجامعة، فما إن حلّ هذا اليوم حتى كنتُ قد قررت أن أتفرغ للعمل في المحاماة، تاركًا كل ما سبق خلف ظهري.

أوجدت لي السيدة باتريسيا عملًا كمحام متدرب لدى أحد مكاتب المحامين المعروفين في العاصمة التشيلية، فبدأت عملي في مكتب السيد هيثم للمحاماة بجدٍ وإصرار على النجاح، بل وعلى التميز أيضًا.

طوال الفترة التي سبقت عملي لدى السيد هيثم، كانت علاقتي مع سحر على أجمل ما يكون، فقد أصبحنا مثل روحين مترابطتين، فلم نكفّ عن المناكفة، إلا أنّ مناكفاتنا قد أصبحت أهدأ قليلا من ذي قبل، والسرّ في كلمات الحبّ والشعر التي كنا نغرد بها عندما نتحدث مع بعضنا بعضًا، حتى إن أم صالح كانت طوال هذين العامين كثيرًا ما تجلسنا على كرسي بوسط المنزل، وتقوم بتبخيرنا خوفًا علينا من الحسد.

كنا أنا وسحر نستجيب لأم صالح مرغمين مجبرين، فهي طيبة وحنون لدرجة أنه يصعب رفض أيّ طلب لها، فطيبة أم صالح هي مصدر قوتها وتأثيرها علينا نحن الاثنين.

أما السيدة باتريسيا فما إن ترانا حتى تقول لنا اجلسا صامتين، أريد أن أشعل لكما شمعة أمام أيقونة العذراء مريم عليها وعلى ولدها أفضل السلام والتكريم، فكنا نجلس صامتين، وكانت هي تصلي راجيةً من الله ألاّ نصاب بالحسد، يبدو أن قصة الضفدع والأميرة قد أصبحت مصدر حسد عند بعض ضعفاء الإيمان.

المحاماة..

مهنتي الجديدة التي درست لأجلها عدة سنوات، ها أنا بدأت أعمل بها رافعًا مبادئ ثورية كبيرة، آمل ألا تكسر ظهري من ثقلها، فالصحافة والكتابة بها جعلتني متحمسًا في طلب المزيد والمزيد من حرية المطالبين بالعدالة الاجتماعية، ومن الدفاع عن الحق الفلسطيني المغتصب.

أدعو الله ألاّ أضعف أو أتقاعس عن نصرة المظلوم، أي مظلوم، فأنا عماد، عماد المعتوه الذي لم ينسَ أنه ظُلِم ووُصِم بالعَتَه ظلمًا، فعانى الأمرّين، عماد الذي درس الحقوق لرغبته بإحقاق الحقوق ليس إلا، الحقوق والحق هي هدفي الذي لن أقبل بأن أحيد عنه أبدًا.

أعنّي يا الله، فلقد ولّى زمن الشعارات التي كنت أكتبها على ورق الصحف، وعلى صفحات المواقع الإلكترونية، وجاء وقت كتابة المرافعات القضائية على أوراق المحاكم، وقت العمل والجد، وقت المحاماة.

المحاماة هي مهنة الأذكياء العباقرة، لا بل هي مهنة الماكرين الخبثاء، ألم يَقلب المحامي الصهيوني الذي كان خلف قرار إبعادي عن أمريكا الحقّ باطلًا، لن أكون لا ماكرًا ولا خبيثًا، سوف أكون عماد، ولا شيء سوى عمادالدين، فلسطيني بسيط وقع عن ظهر حمار، فأصبح محاميًا يسبح ضد التيار ما دام التيار يجري عكس اتجاه الحق.

أعطاني السيد هيثم عدة ملفات تعود لقضايا يقوم مكتبه بمعالجتها في المحاكم، قضايا طلاق وميراث وحوادث سيارات، فقرأتُ تلك الملفات عَدة مرات، فلم أجد بها ما كنت أبحث عنه من قضايا حلمتُ بالترافع فيها، قضايا العدالة الاجتماعية، قضايا حرية التعبير، أين تلك القضايا؟ أين أحلامي؟ هل استيقظت على الواقع المليء بالمشاكل الخاصة من طلاق وميراث، وحتى حوادث سيارات.

مرّت عدّة أشهر وأنا على هذه الحال، أراجع القضايا وأكتب المرافعات، وبدأ المال يتدفق عليَّ، بل أصبح ينهال عليَّ أكثر وأكثر، فقد بدأتُ أجيد المعادلة، وأتقنُ فكّ رموز المسألة فأحلّ القضايا بسرعة واضحة، حتى إنّ السيد هيثم أوكلني ببعض الملفات التي تعتبر من ملفات القضايا المتقدمة.

كانت إحدى تلك القضايا تتعلق بأخوين قد فكّا شراكتهما التجارية، تلك الشراكة التي كانت قد بدأت عندما جاءا مهاجرين إلى تشيلي قبل أكثر من ستين عامًا، وكانا وقتها يبيعان الملابس متنقلين من قرية إلى قرية، حتى منَّ الله عليهما بعد عمل جاد، وافتتحا محلًا لبيع الملابس، ثم أصبح مصنعًا فمصانع، وقد أراد الأخوان فكّ الشراكة، ولما حاولتُ أن أعرف السبب، رفض كلاهما إخباري.

حاولت مرارًا وتكرارًا، إلا أنني لم أنجح بمعرفة السبب، فقد كان هذان الأخوان مثل بحر هائج أُلقيَت بداخله إبرة، فلا يمكن إخراجها ولا يمكن تهدئة البحر ومنع هيجانه.

عرض أحدهما عليَّ الرشوة، كان مبلغًا من ذوي الأرقام الكبيرة، بحيث أنني أستطيع بعُشر هذا المبلغ أن أتزوج زواجًا فخمًا، وأستطيع بباقي المبلغ شراء شقة في مكان ممتاز في وسط العاصمة التشيلية.

أبلغت السيد هيثم بما حدث، وتركتُ له حرية التَصرف، فعاد إليّ بعد عدّة أيام وقال: اليوم قد مرّ على عملك عندي عامٌ كاملٌ، واليوم أيضًا قد تخرجتَ وحصلتَ على شهادة مني تفيد بأنك محامٍ نزيه.

لم تكن هناك قضية، ولم يكن هناك إخوة متصارعون، بل كان هناك اختبار لك ليس إلا.

تركت السيد هيثم يكمل حديثه حتى نهايته، ثم توجهتُ إلى مكتبي فجمعتُ أوراقي الخاصة ومتعلقاتي الشخصية، ثم عدتُ إلى مكتب السيد هيثم حاملًا ملف القضايا التي كانت بحوزتي، وحاملًا استقالتي، وضعتُ كلّ ذلك على مكتبه وخرجتُ دون أن أنطق بكلمة واحدة، وغادرتُ إلى منزلي حاملًا متاعي الخاص.

كان من المفروض أن يعني انقضاء عامي الأول في عملي كمحام، انقضاء عام سحر الرابع في دراستها الجامعية أيضًا، وهذا يعني أن موعد حفل زفافنا قد حلّ واقترب، لم أجد غير قلمي أشكو له همّي، قلمي الذي ابتعدت عنه لعام كامل، فأنا لم أكتب أي مقال منذ بدأت عملي في مكتب المحاماة.

أردت أن أكتب مقالًا أفرغ فيه غضبي فلم أستطع، فقد كانت صورة سحر موضوعة أمامي على المكتب، فوجدتُ القلب يشكو الحبّ والعشق، مبتعدًا عن العقل وشكواه، فالعقل للعقلاء، وأنا معتوه عاشق ولهان.

كتب قلمي بأمر القلب وصاح:

هذا هو حال عماد الإنسان ... قلبي مليء بالعطف والحنان
وتورّد وجهه في ثوان ... إذا ما أحب غنى ودندن
فقيس بليلى قد فتن ... فالحبّ لا يطرق القلب ليستأذن
فهو يثور مثل البركان ... ومن أجله كل غالٍ رخص وهان
ويبقى مكانه بالقلب مهان ... فليس على القلب من سلطان

نعم يا حبيبة القلب سحر، فليس على حبّي لك من سلطان جائر ظالم،

وإنما حبّك هو سلطان حياتي، ومنارة طريقي الذي أحلم بأن أكمله معك، كم أنا الآن بحاجة للابتسامة منك حتى يزول همي، ابتسامة لا أكثر..

ويلي الابتسامة كلام مفتون ... ابتسامة تبقيها نظرة عين
فما الحبّ إلا درب الجنون ... بجمال وسحر أحلى العيون
فقيس بليلى قد فتن ... فليس للعقل ههنا من مكان
فَسِر على دربهما وتفنّن ... وابن شداد بحبّ عبلة دان
هذا هو الواقع والميزان ... واجعل قلب الأسد يلين
وكن أمير حبّ هذا الزمان ... فكن عاشقًا ومحبًا ولهان
ضعيفًا خائفًا طيّ النسيان ... كن قيسًا وعنترة ولا تكن
وأكثرها صفاءً ولمعان ... فالحبّ أجمل الألوان
حتى تورَّدَ قلبه وازدان ... ما لامس الحبُّ غصنًا

رنّ جهاز هاتفي، فأسرعت لالتقاطه ظنًا مني أنها سحر، إلا أنها كانت السيدة باتريسيا، تريد مني أن أحضر إلى معهدها على الفور، ففعلتُ ما طلبت، وما إن وصلتُ مكتبها في المعهد حتى وجدتُ السيد هيثم جالسًا عندها يتناول القهوة.

كان السيد هيثم قد شرح لباتريسيا ما حصل بيننا، وأنه لم يكن يقصد سوى وضعي في اختبار للثقة، لأنه أراد أن يجعل مني نائبًا له في مكتب المحاماة الخاص به.

لم تعلّق على ما قاله لها، وانتظرت حضوري، فما إن سلّمت عليها مقبلًا يدها كعادتي، حتى قالت لي: هل تتذكر يا عماد عندما وقعتَ عن الحمار يوم أن كنت صغيرًا؟

قلت: نعم

قالت: في ذلك الوقت، لم يكن الحمار مذنبًا أبدًا، لأنك أنت من كان يقفز على ظهر الحمار بحركات بهلوانية.. فأنت المذنب إذاً.

قلت: صحيح مئة بالمئة، أنا من أخطأ في ذلك اليوم، وليس الحمار.

قالت: لكن اليوم الحمار الذي يشرب القهوة في مكتبي هو المذنب، صحيح؟؟

قلت: مذنب نعم، مخطئ نعم، أما وصفك السيد هيثم بأنه حمار، فأنت أدرى.

قالت: يا سيد هيثم، ألم أحضر عمادًا للعمل عندك؟ ألم أقل لك إنه مثل ابني وأعز؟ كيف يخطر ببالك أن تشكِّك بأمانته ونزاهته؟ وهل كنتَ تعتقد أنه سوف يقبل الرشوة؟ صحيح أنك حمار، حمل على ظهره جوهرةً ولم يقدرها.

أنا أقول لك نيابة عن عمادالدين، عماد لن يعود إلى العمل عندك، وإن قَبِلَ هو عذرك وعاد إليك، سأمنعه، فأنا أم ترفض أن يهان ابنها.

ثم سألت السيد هيثم: هل شربتَ قهوتك؟ فأدرك السيد هيثم أن عليه مغادرة مكتب السيدة باتريسيا، فغادر دون أن يفتح فمه بحرف واحد.

طلبت لي السيدة باتريسيا الشاي، فأنا لا أشرب القهوة، وقالت: لا تقلق، سوف أجدُ لك عملًا أفضل، فأنت محام ذكي ومتميز، فلا تقلق.

قلت: أولًا.. شكرًا لما قلته للسيد هيثم، فلقد برَّدت نار غضبي عليه.

ثانيًا.. أنا أريد أن أتزوج قبل البحث عن عمل جديد، أريد أن أرتاح قليلًا، فأنا منذ خمسة أعوام من تركي لفلسطين لم أرتح يومًا واحدًا، فلقد أمضيت السنوات الخمس الماضية إما في الدراسة، وإما في العمل، أما الآن فأريد الزواج من سحر أولًا، ثم البحث عن العمل ثانيًا.

قالت: حسنًا يا ولدي، أين تريد أن نقيم لك حفل زفافك، كلّ ما عليك فعله هو إخباري أين، وأنا والسيدة أم صالح سوف نعدّ لك ولسحر أجمل عرسٍ حصل منذ أعوام.

قلت: هناك خلف البحار، في فلسطين، أريد عرسي في فلسطين، فأمي هناك ترفض المجيء إلى تشيلي، وأعتقد أنّ من حقها عليَّ أن أُدخِلَ إلى قلبها الفرحة، وأقيم عرسي عندها في منزلها في القرية.

قالت: اعلم يا عمادالدين، أنك كل يوم تكبر في نظري وقلبي عن اليوم الذي يسبقه، فأنت ابنٌ طيب صالح.

قالت: إذًا إلى فلسطين، سوف نسافر معًا لنقيم عرسك هناك، صحيح أنني لم أرَ أرض فلسطين منذ أن وصلت لتشيلي عندما كنت طفلة صغيرة، ولكنني اليوم أعود لها لكي أزفّك لعروسك هناك، عروسك.. صحيح هل أخبرت سحر، وأم صالح؟

قلت: لا، وهذا ما أرجو منك عمله والتكفّل به، فأنت تعلمين أن سحر عنيدة نوعًا ما، وأنها أصغر إخوتها، فأظن أنه من الصعب تقبلهم لفكرة سفرنا إلى فلسطين للزواج هناك.

وفي المساء توجّهنا إلى منزل أبي صالح بعد أن كانت السيدة باتريسيا قد حدّدت موعدًا مع أم صالح.

تركت أم صالح تتحدث مع باتريسيا، وأخذت سحر لنتحدث لوحدنا في الحديقة، وقلت لها: سحر، سوف نتزوج.

قالت: لا أريد الزواج منك.

قلت: سوف نتزوج في فلسطين.

قالت: موافقة، وأبصم لك بأصابعي العشرة، فلنذهب لفلسطين، فأنا أحلم بذلك منذ سنين، صحيح أنني كنت أحب فلسطين قبل أن أتعرف إليك، لكن بعد خطبتي لك وتعرّفي عليك، أصبحت أعشق فلسطين من خلال حديثك عنها.

متى أعدُّ حقائب السفر؟ وهل حجزت تذاكر للطائرة؟ ماذا أشتري لوالدتك هدية؟

قلت: سحر، كنتُ أظنُّ أنني سوف أواجه صعوبة في إقناعك بالسفر للزواج في فلسطين، لكن يبدو أنني سوف أواجه صعوبة بالعودة بكِ من فلسطين إذا ما وصلنا هناك.

قالت: في هذه معك حق، فإن أعجبتني الإقامة هناك، فسوف أبقى، أما أنت، فإذا أردت العودة إلى تشيلي فتستطيع العودة ولا تقلق عليَّ، لأنني سوف أكون مقيمة عند والدتك.

قلت: كل يوم يزداد يقيني أنك مجنونة، يا حبيبة عمري ويا ملاكي الوردي الجميل.. سحر، لقد كتبت اليوم عنك قصيدة، هاك اقرئيها.

أخذت سحر الورقة وقرأت ما بها مرةً تلو المرة، ثم قالت: أحبّك وأعشقك، وأعشق كلّ ما تقول وتكتب، يا حبيب القلب ويا نور العيون، عماد، سوف أنشر القصيدة على صفحتي في الفيس بوك، وأعلن عن سفرنا لفلسطين كي نتزوج.

ما إن أكملت هذه الجملة، حتى سمعت الزغاريد، تلك الزغاريد التي سمعت مثلها عندما وافقت سحر على خطبتنا، كان صوت أم صالح والسيدة باتريسيا يعلو ويعلو، معلنةً الموافقة ومؤكدةً على موعد اقتراب السفر.

على الفور، اتصلتُ بوالدتي وأخبرتها عما حدث، فَسُرَّت كثيرًا، بل إنها سُرَّت حتى بدأتُ أسمع بكاء الفرح يختلط بدعواتها لي بالتوفيق.

تمت كل الاستعدادات هنا في تشيلي لسفرنا، فلقد قرر أبو صالح وعائلته السفر إلى فلسطين، كما قررت السيدة باتريسيا واثنين من أحفادها السفر معنا أيضًا.

هناك في فلسطين، وفي قريتي، كانت أمي وخالي الطيب سالم قد قاما بكل الاستعدادات اللازمة لحفل العرس.

وصلت طائرتنا من تشيلي إلى الأردن، ومن هناك توجهنا برًا إلى فلسطين، إلى قريتي، إلى دائرة العقلاء، نزلت عائلة أبي صالح وعائلة السيدة باتريسيا عندنا في منزل والدتي، فلقد أَعَدَّتهُ جيدًا لاستقبالهم.

أما أنا فتم طردي وإخراجي من المنزل، بحجة أنه ليس من المستحب أن يرى العروسان بعضهما قبل العرس، فأمضيتُ الأيام القليلة التي سبقت حفل الزفاف في منزل خالي سالم الذي كان قد أنهى دراسة التخصص في إسبانيا، وعاد للقرية، ففتح بها عيادة..

عاد مصطحبًا زوجته نوريا الإسبانية، فلقد تزوج خالي سالم من إسبانية قبل أن يعود إلى فلسطين.

أمضت زوجة خالي نوريا كل وقتها في منزل والدتي، لمساعدة أمي ولتستمتع بالتحدث باللغة الإسبانية أيضًا، فتشيلي مثل إسبانيا كلتاهما تتحدثان الإسبانية.

تحدثنا أنا وخالي سالم عن أمور كثيرة، فكان حديثه هو يدور حول السياسة والرياضة، أما حديثي فكان يدور حول أن تشيلي لم تعد ألعوبة في يد الأمريكان والسي آي إيه مثلما كانت سابقًا، عندما دبَّر السي آي إيه انقلابا عسكريًا عام ١٩٧٣ على حكومة إيندي، الحكومة الشرعية والمنتخبة من مواطني تشيلي، وأخبرتُهُ أنّ الأمور هناك قد أصبحت جيدة جدًا، وقد تضاهي أوروبا في الحداثة والتطور.

أما خالي فقد قال لي إن الأمور في فلسطين تحت حكم سلطة الوهم، سلطة أوسلو لم تتبدل، وأن رجال هذه السلطة لا يكفون عن ملاحقة من يخالفهم الرأي، بل إنهم يتنصتون عليه، ويعتقلونه، ويحققون معه بعنف وربما يقتلونه أيضًا.

لم أستغرب ما قاله لي خالي سالم، فلقد كنت أتابع ما يدور في فلسطين من خلال مواقع التواصل، ومن خلال ما ينشر على صفحات الإنترنت، وقبل أن تصل أحاديثنا إلى نهايتها، كانت الاستعدادات لحفل الزفاف قد اكتملت.

في ظهر يوم الجمعة، كانت جموع أهل القرية تتناول طعام الغداء الذي أعددناه بمناسبة الزفاف، وما إن حلّ المساء حتى كانت فرقة الأناشيد تعلن بدء حفل الزفاف، حفل قروي عائلي بسيط، طعام وعصائر وحلويات، وزغاريد، الكثير الكثير من الزغاريد.

بعد أسبوعين من حفل الزفاف، بقيتُ أنا وسحر في فلسطين، وسافر عمي أبو صالح والسيدة باتريسيا ومن معهم إلى تشيلي، سافروا عائدين بعد أن كانت أم صالح وباتريسيا نجمتي الحفل بلا منازع، فلقد ظلتا ترقصان طوال أيام الحفل،

ورغم كبر عمرهما، إلا أنهما عادتا شابتين صغيرتين من شدّة فرحهما بزيارة فلسطين، وبالرقص في العرس.

أنا وسحر قررنا البقاء عدة أسابيع مع والدتي، محاولين إقناعها بالسفر معنا إلى تشيلي، فتجولتُ مع سحر طوال تلك الأسابيع في مختلف المدن الفلسطينية، زرنا نابلس، وهناك كانت الكنافة بانتظارنا، وزرنا الخليل فكان العنب والدبس في انتظارنا.. أكلٌ وتجولٌ من مدينة إلى أخرى.

لم أنجح بإقناع والدتي بالسفر معنا، لكنها نجحت بإقناعنا بالبقاء، لا أدري هل هي من نجحت في إقناعنا؟ أم أننا أنا وسحر كنا لا نريد العودة إلى تشيلي.

في فلسطين بقينا، وفي المدينة فتحتُ مكتبًا للمحاماة، وما هي إلا أشهر قليلة حتى كانت سحر تحمل في أحشائها جنينًا يطالب بحقه في الخروج لرؤية النور، فاكتملت الأشهر التسعة ورأى الجنين النور.

كانت فتاة، فسميتها على اسم والدتي مريم، وكان فتى فسميته على اسم والدي أحمد، نعم، كانا توأمين رأيا النور معًا.. وبفارق دقائق معدودة، فأصبحتُ منذ ذلك اليوم أبا أحمد ومريم، وأصبحت سحر هي الأخرى أم مريم وأحمد.

أما والدتي، فكانت الجدة والأم أيضًا، فلم تكن سحر ولا أنا نعلم عن تربية الأطفال أي شيء، فتولت تلك المهمة والدتي، تولتها وكأنها هدية من السماء، فقد كنت أنا وحيدها، وكم كانت مشتاقة لترى أحفادها.

أول ما قامت به أمي، أمسَكَت مريم وأذَّنَت الله أكبر في أذنها، أذنت بصوت خافت حنون، ثم أقامت في أذنها الأخرى، وأمسكت بأحمد وفعلت معه الشيء نفسه، ثم قامت بدَهن الطفلين بزيت الزيتون وأبقتهما على هذه الحال، حتى صار عمرهما أربعين يومًا، كل يوم تغسلهما بالماء الدافئ، ثم تدهنهما بالزيت الدافئ أيضًا.

أنا وسحر كنا مسرورَين من أننا تخلصنا من تلك المسؤولية الكبيرة، ما إن تعافت صحة سحر بعد الولادة، حتى عادت للعمل معي في مكتب المحاماة الذي كان قد بدأ يُعرَف بين سكان المدينة،

كانت أغلب القضايا التي قررت التعامل معها تعود إلى أسرى فلسطين في السجون والمعتقلات الصهيونية.

لقد كانت أغرب تلك القضايا تعود لمحامية فلسطينية اسمها شيماء، مسجونة ومعتقلة على الرغم من أنها محامية، وكانت تهمة هذه المحامية لا تعدو كونها افتراءًا وتلفيقًا، سعت من خلالها أجهزة الأمن الصهيونية إلى زجّ تلك المحامية شيماء خلف أسوار عالية سميكة، وقضبان كثيرة كثيفة، فقد كانت تلك الفتاة أختًا لشابَّين أسيرين، وكانت قد درست المحاماة حبًا في الدفاع عن الأسرى، فأخوا تلك الفتاة محكومان بأحكام مؤبدة، والمؤبد في كل محاكم العالم لا يتجاوز خمسة وعشرين عامًا، إلا في محاكم دولة الاحتلال الصهيوني، فهو تسعة وتسعون عامًا.

نعم، المؤبد للأسير الفلسطيني تسعة وتسعون عامًا، وقد يضيف القاضي عدة أعوام من عنده إذا ما أحبّ.. لم يكن في محاكمة دولة الاحتلال أي قانون يحكم، فالمحتل هو الحاكم والجلاد في نفس الوقت.

تمَّ الحكم على المحامية شيماء بالسجن لعامين، بادعاء أنّ هناك ملفًا سريًا، وهذه حيلة يلجأ إليها القاضي إذا ما أراد زجّ أي فلسطيني خلف القضبان، ولم يكن هناك دليل على أيّ تهمة، فيدعي القاضي وجود ملف سري، ولا يُسمح للمحامي المكلف بالدفاع عن الأسير الفلسطيني بالاطلاع على ذلك الملف، وهكذا بادعاء أنّ هناك ملفًا سريًا لم أره، ولم أتمكن من مراجعة ما به من تهم، تم الحكم على المحامية شيماء في تلك القضية، كانت مثالًا على ما كنتُ أواجهه في المحاكم الصهيونية، وأضف إلى ذلك إذلالًا عندما كنت أتوجه إلى المحاكم، فقد كان يتم تفتيشي تفتيشًا مذلًا مهينًا، وعلى الرغم من ذلك كنت أصرّ على حضور الجلسات، كلّ الجلسات لكي أتمكن من إخراج أسير فلسطيني واحد من خلف أسوار المعتقلات، أو لعلّي أخفّف من عدد أعوام سجن أحد الأسرى، تلك الأعوام التي كان يوجبها القضاة الصهاينة على الأسرى الفلسطينيين،

هذا عشرة أعوام، وذاك عشرون، أما هؤلاء فكلّ واحد منهم مؤبد، ومؤبد.

وجدتُ نفسي بعد عام من ولادة ولديَّ مريم وأحمد، لم أحقق أي نوع من العدالة لأيّ أسير فلسطيني، ولا حتى واحد فقط، فأصبحتُ أزاول هوايتي القديمة.. الكتابة، كنتُ أكتبُ لكي أعبر عن كل ما يجري في أروقة تلك المحاكم، وما كان يجري أيضًا في كواليس سلطة أوسلو ورجالها.

وهنا أيضًا لم أكن موفّقًا، بل كانت مقالاتي تُمنَع من النشر في الصحف المحلية، فكنت أقوم بنشرها في صحف خارج فلسطين، وأترجم العديد منها لعدة لغات، وخاصة الإسبانية لتصل إلى تشيلي، وتنشر عند السيد أنطوان الذي كان ينشر كل ما أكتب، ويطالب دائمًا بالمزيد.

في خضم هذا الانشغال، كانت سحر قد حملت للمرة الثانية، ولأن الله فاض علينا بكرمه، فلقد حملت بتوأمين مرة أخرى؛ توأمين فتاتين هذه المرة.

عندما اقترب موعد ميلاد توأم الفتاتين، اتصلتُ بحماتي أم صالح وبالسيدة باتريسيا، وقلتُ لهنَّ إنّ موعد ميلاد الفتاتين قد اقترب، ولم يبقَ عليه سوى أسبوع، فإن لم أركِ يا عمتي أم صالح أنت والسيدة باتريسيا حول سرير سحر عند ولادتها، فأنا لن أسمي إحدى الفتاتين باتريسيا والأخرى إكرام، بل إنني سوف أسمي كل واحدة من تلك الطفلتين محرومة رقم (١) ومحرومة رقم (٢)، محرومة من حنان جدتها باتريسيا ومحرومة من حنان جدتها إكرام، أنتما تعلمان أنني لا أمزح في تلك الأمور أبدًا، فإما أن تحضرا فورًا، وإما سأنفذ ما قلت.

وَصَلَتْ كلٌ من أم صالح وباتريسيا قبل موعد الولادة بأربعة أيام، وما إن حان موعد الولادة حتى انتقلنا كلّنا إلى المشفى الذي وَضَعَت به سحر مولودتينا، سمّيت الأولى باتريسيا والثانية إكرام، فلم يكن هناك داعٍ أن تسمّى أي منهن محرومة، فلقد حضرت الجدات جميعاً.

أصبح عندنا مريم على اسم والدتي، وأحمد على اسم والدي، وباتريسيا على اسم السيدة باتريسيا ابنة فلسطين، ابنة مدينة بيت جالا،

وأصبح لدينا إكرام على اسم حماتي ام صالح، ابنة مدينة القدس المحتلة.

قامت أمي بالاعتناء بالطفلتين الجديدتين، وعاونتها على ذلك أم صالح وباتريسيا، فكان هؤلاء الصغار يتلقون من الاعتناء والدلال ما لم يتلقه ملك ملوك الزمان، أمي تكبر في آذان الأطفال وأم صالح تدهنهم بالزيت القروي، زيت زيتون فلسطين، وباتريسيا تشعل الشموع وتصلي لله ليبارك هؤلاء الأطفال.

مكتبة
t.me/t_pdf

فقرة (٨)

الـوداع

في صباح اليوم التالي، جهزت كلٌ من السيدة باتريسيا وأم صالح حقائبهما استعدادًا للسفر إلى الأردن، ومن هناك إلى تشيلي، وجهزت أنا سيارتي لكي أقوم بإيصالهنّ إلى نقطة العبور بين فلسطين المحتلة والأردن.

انطلقنا بعد أن ودعت أم صالح وباتريسيا الأطفال وأمي، تاركين إياهم في المنزل، وقمت أنا وسحر بإيصال جدتي أطفالي إلى نقطة العبور.

في أثناء عودتنا أنا وسحر كنا نتبادل النكات عن كيفية تصرف الجدات الثلاث، وعلت في أرجاء السيارة ضحكاتنا كما هي العادة.

فجأة ساد صمت مميت، صمت قاتل بعد أن دوت زخّات من الرصاص لتمطر السيارة ومن فيها، فلم يبق جزء داخل السيارة أو خارجها إلا وقد تلقى رصاصة أو مجموعة رصاصات، ساد الصمت، وحلّ الظلام، ما عدتُ أرى وما عدتُ أسمع، وغبت عن دنيا الوعي.

ما عاد هناك ضحكات ولا نكات، بل دماء تخضّب أجسادنا، جسد سحر، تلك الملاك الوردي، وجسد عمادالدين، دماء ملأت كل أرجاء المكان.

في المشفى، استيقظت من حالة الغيبوبة واللاوعي، استيقظتُ ولم أمت، ولم أستشهد، ويا ليتني متّ بدل المرة ألف ألف مرة، ولا تستشهد سحر.. سحر شهيدةً قد أصبحت، علت روحها إلى جنان الخلد، حبّي وعشقي وملاكي، وزوجتي وأم أطفالي، سحر الثورية الهادئة، العنيدة المطيعة، سحر التي أحبّت فلسطين، تستشهد اليوم على تراب فلسطين.

أما أنا فكان جسدي عصيًا على أن يموت بتلك الرصاصات التي أصابته، ويا ليته لم يكن عصيًا، ليته كان جسدًا ضعيفًا، وسمح لي بأن أرافق سحر إلى مثواها إلى السماء.

استيقظت من حالة الغيبوبة، فوجدتُ حولي أمي تبكي، تمامًا مثلما كانت تبكي يوم سقطت عن الحمار، تبكي وتدعو الله أن يخفّف عليّ مصيبتي، وأم صالح وباتريسيا كانتا قد علمتا بخبر ما حصل معنا، فعادتا من عمان، عادتا لتودعا سحر إلى مثواها الأخير، وعادتا لكي تواسياني.

جريمة حقيرة قذرة، ارتكبها مستوطن صهيوني برفقة مجموعة من المستوطنين الحاقدين، الذين استوطنوا أرض فلسطين ليعيثوا فيها فسادًا وخرابًا ودمارًا، يعيثوا بها تقتيلا في أبناء الوطن المحتل، لم تكفهم صبرا ولا شاتيلا، ولا دمار لبنان، ولا حرق قطاع غزة، فأطلقوا النار وهم يتراقصون على دمائنا، لم أتمكن من حضور جنازة سحر، فلقد دفنت قبل أيام، دفنت عندما كان جسدي متمسكًا بالحياة على الرغم مني ومن روحي، التي ما عاد لها مكان في هذا الجسد.

جسدٌ بلا روح، هكذا أصبحتُ، وهكذا سوف أبقى، بقيت الجدات الثلاث يتنقلن بين المشفى لرعايتي، وبين المنزل للاهتمام بالأطفال الأربعة، منزل قد خيم عليه الحزن والأسى، منزل ما عاد منزلًا، بل أصبح بيت عزاء، بيتنا لبس الثوب الأسود معلنًا الحداد، الحداد..

ساعدني اهتمام خالي سالم الطيب على الشفاء سريعًا، فشُفِيَ جسدي ولم تبقَ عليه سوى بعض الندوب التي خلفتها تلك الرصاصات القذرة.. أما روحي فلم يكن بها ندوب، ولا كان عليها أي آثار، روحي التي بحثتُ عنها في داخلي فلم أجدها، ولا أظنّني قد أجدها في يوم من الأيام، لم تصب تلك الروح بتلك الرصاصات، ومع ذلك فضّلَت أن تتركني لتكون مع توأمها، روح سحر.

شُفي الجسد، فوقفت على قدمي متوجهًا إلى مكتبي، وقمتُ بإعداد أوراق تسمح لأم صالح بأن تأخذ معها إكرام، طفلتي التي أسميتها على اسم أم صالح، وسمحت أيضًا عبر تلك الأوراق لباتريسيا الجدة بأن تأخذ الطفلة باتريسيا، الطفلة اليتيمة.

حملت الأوراق وعدتُ إلى بيت أمي، وطلبت من الجدات الثلاث أن يصمتن، ويستمعن إلى ما سوف أقوله جيدًا.

أمي.. أم سحر.. الأم باتريسيا، أولادي أمانة عندكم، فباتريسيا الصغيرة أمانة عندك يا أيتها الأم باتريسيا، وكذلك إكرام أمانة عندك يا أم سحر، أما أحمد ومريم فهما أمانة عندك يا أم عمادالدين، يا أمي.

لقد أعددت الأوراق التي تخول لكنَّ أن تَقُمنَ بذلك بشكل قانوني، اثنتان تسافران مع جدتيهما إلى تشيلي، وواحدة وأخاها يقيمان مع جدتهما في فلسطين، لَكُنَّ مطلق الحرية في تربية أولاد سحر كما تَشَأنَ، فأنا ما عدتُ مسؤولًا عن أطفالي بعد اليوم..

أنا أحتاج أن أربي نفسي أولًا، وهذا ما سأقوم به، وإن ظلّ في عمري عمر سوف أتابع ما بدأتنَّ أنتنَّ به.

عندما كنتُ صغيرًا، وكان عمري من الأعوام اثني عشر، وقعتُ عن حمار واتهمتُ بأنني معتوه، فلُذتُ بالصمت فارًا من دوائر العقلاء وتعليقاتهم، ولم أتصدّ لهم إلا بعد أن قوي عودي، فقصمتُ الفاسد منهم وأدخلته السجن.

وعندما كنت في أمريكا دافعتُ عن سحر فضَرَبتُ، وضَرَبتُ من حاول الاعتداء عليها، ولكني لم أدافع عن نفسي، وقبلت أن أترك أمريكا للصهاينة لكي يواصلوا أعمالهم القذرة هناك.

وعندما عدت إلى فلسطين، لم أتمكن على الرغم من كوني محاميًا متميزًا كما وصفني هيثم وغيره ممن عرفوني في قاعات المحاكم التي يحكمها قانون ونظام، من أن أدافع عن أسير فلسطيني واحد، وأتمكن من تبرئته من افتراء الصهاينة، وقضاة المحاكم العسكرية، محاكم المحتل القاتل، لذلك لن أعود إلى كتابة المقالات لأفضح الفاسدين، ولن أعود إلى أروقة المحاكم لأقف شاهدًا على فساد القضاة هناك.

احملنَ أطفالي وقمنَ بتربيتهم، أما أنا فسوف أبدأ منذ الآن بتربية هذا العدو الظالم، ولن أعود إلاّ منتصرًا أو شهيدًا، وفي كلتا الحالتين سوف أكون سعيدًا.

ألقيتُ الكوفية الفلسطينية البيضاء المطرزة على كتفيّ، وحملتُ سلاحي في يدي، مقسمًا على المقاومة.. لن أصمت.. ولن أكتب، ولن أكون محاميًا، سوف أكون مقاومًا، ستكون الجبال مسكني وأشجار الزيتون أطفالي.

لم أحمل السلاح يومًا بحياتي ولا أجيد استعماله أبدا، ولكنني واثقٌ أنني سوف أجد في الجبال مقاومين مجاهدين ثائرين، قد سبقوني إلى هناك ليقاوموا المحتل، ويزيحوا ظلمه عن أرض فلسطين، وإن لم أجد في تلك الجبال سوى أشجار الزيتون، فسوف تعلمني تلك الأشجار فنون مقاومة الاحتلال.

كنت مؤمنًا ضعيفًا حاول أن يغير بصمته وبكلمته، ولكنني اليوم مؤمنٌ قويٌ أغير المنكر بيدي، ولا شيء سوى يدي، ألم يقل نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

فرسولنا الأكرم عليه أفضل الصلاة وأعظم التسليم طلب منا بدء تغيير المنكر باستعمال القوة، واليد هي القوة، ثم الكلام ثم الصمت والقلب.

إذًا، لقد كنت مخطئًا عندما بدأت بمحاولتي لتغيير المنكر من افتراءٍ وقع عليَّ، ومن فسادٍ رأته عيناي، كنت مخطئًا بصمتي، كنت مخطئًا عندما كتبت المقالات، ومخطئًا عندما وقفت أمام محاكم العدو، كنت مخطئًا عندما لم أستعمل القوة منذ اليوم الأول، ولا شيء سوى القوة.

لم يفت الوقت، وسوف أكون قويًا في حرب المظلوم ضدّ الظالم، حاملًا سلاحي.. انطلقتُ في الجبال والوديان، على كلّ محتلّ لأرض فلسطين الرصاص تلو الرصاص أطلقت.

معتوهٌ أنا وأنتم العقلاء في دوائركم.. دوائر المكر والتنظير، دوائر التطبيع، دوائر العقلاء، معتوهًا كنت وسوف أبقى حاملًا سلاحي لكي أقاوم، وعقلاء أنتم تعيشون بسلام، ما هو إلا استسلام وهدر كرامة واستعباد.

معتوه في دائرة العقلاء.. رواية جمعت في شخصية عمادالدين عدة شخصيات فلسطينية واقعية حقيقية، عدة شخصيات انصهرت بشخصية واحدة اسمها عماد!

فليبحث كل من تقرأ عيناه هذه الكلمات عن عماد الذي يسكن عقله الباطن، فأنا واثق أن كل واحد منا يحمل بداخله ألف عماد وعماد.

لم أكتب هذه الرواية الواقعية وأنا جالس أتأمل غروب الشمس في إحدى المنتجعات السياحية، واضعًا أمامي الكافيار والمشروبات الباردة، لا، بل يشهد الله على أني قد كتبتُ هذه الرواية وما سبقتها من كتب: «مهندس على الطريق» وكتاب «وهم الراية» «الماجده» وأنا مقيد في زنزانة العزل الانفرادي في سجون العدو الصهيوني، تلك الزنزانة التي لا شمس تدخلها ولا صوت يصل إليها، فأنا معزول منذ أن تم اعتقالي، وأنا معزول منذ أن انتهى التحقيق معي، ذلك التحقيق الذي دام ستة أشهر، متُّ خلالها من التعذيب بدل المرة ألف مرة.

أكتب هذه الرواية من زنزانة العزل الانفرادي الخاص، الذي أُمسكتُ به منذ عام ٢٠٠٣م حتى يومنا هذا، صابرًا مستعينًا بإيماني بالله عز وجل، واثقًا بأن قيدي سوف ينكسر بإذن الله.

مكتبة
t.me/t_pdf

انضم إلى مكتبة .. .. اضغط اللينك

t.me/t_pdf

المهندس المجاهد عبدالله البرغوثي.. في سطور

- المهندس عبدالله غالب الجمل البرغوثي.
- صاحب أعلى حكم في تاريخ القضاء الصهيوني.
- المحكوم بسبع وستين (٦٧) مؤبدًا، وخمسة آلاف ومئتي (٥٢٠٠) عام.
- وصاحب أكبر ملف أمني بتاريخ دولة الكيان الصهيوني الغاصب.
- عبدالله البرغوثي هو عماد واحد في مجموعة عماد وعماد.

من أقوال المهندس المجاهد عبدالله البرغوثي

- «لا تنسوا المهندس في عتمة عزلته لقد كان فيكم للحرية عنوانا»
- «لست كاتبًا محترفًا.. فأنا مجرد مقاوم عشق إطلاق الرصاص إلى صدور المحتلين من بني صهيون، وعندما عزّ الرصاص في بندقيتي، لم أجد سوى الرصاص في قلمي، قلم الرصاص.. سأكتب وسأبقى أكتب.. وستبقى كلماتي تزعج كلّ من يقف في طريق المقاومة، كلّ شوكة وكلّ عقبة وكلّ مُرجف»

تم بحمد الله

t.me/t_pdf

من أقوال الأسير المهندس:

أعلمُ إنني أعيش اليوم في ظلمة زنزانة العزل الانفرادي منذ سنين طويلة... طويلة جداً، حتى إنني لم أعد أحصيها.

ولكن، أذكر قبل دخولي إلى العزل؛ إنني عشت ستّة أشهر داخل زنازين التحقيق شاهدت خلالها الموت! كلّمته وكلّمني... لامسته في لحظات عديدة، وتغلّبت عليه بعون الله القاهر القهّار.

عبدالله غالب البرغوثي

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
عمان - العبدلي - هاتف 5607386 6 962+
فاكس 5653470 6 962+ خلوي 95208684 7 962+
Email:alfursan111@yahoo.com

ISBN 9789957606909

دار البرغوثي
للنشر والتوزيع
www.daralbarguothi.com
00962785000488